الفصل الثالث

ما هى العملية الفكرية والإيمانية التى تجعل اليهودى يتحوَّل إلى الإسلام؟

ولماذا ظلَّ تحـــوّل اليـــهـــود الجماعى إلى الإسلام مستمرّا حتى مطلع القرن السابع عشر؟

- لماذا التعمية على الأصول اليهودية لمن أسلموا ؟
- ما هى العملية الفكرية والإيمانية وراء التحول الجماعى اليهودى إلى الإسلام حتى القرن السابع عشر الميلادى
- إحصاءات بنيامين
- الفروق العقدية كما حدّدها شموائيل بن يهوذا
- رسالة إسرائيل الأورشليمى
- محاولة لفهم ما حدث سابقًا ولاحقًا

obeikandl.com

obeikandl.com

كل اليهود من غير بنى إسرائيل فى المدينة المنوّرة وما حولها قد تحوَّلوا إلى الإسلام، بل وسعوا إليه سعيًا، باستثناء قلة قليلة منها كعب بن الأشرف الطائى الذى أسَفَّ فى عداوته للنبى ﷺ والتحريض ضدّه، فكان جزاؤه القتل.

أمَّا اليهود الذين ادَّعوا أنهم من نسل بنى إسرائيل والذين يطلق عليهم فى المراجع العربية اسم (يهود) دون ألف ولام فقد أسلمت طائفة منهم فى عهد النبى ﷺ أمَّا الباقون فكان تحوّلهم إلى الإسلام بطيئًا فى بداية الأمر، ثم راحوا ـ بالتدريج ـ يدخلون الإسلام بأعداد كبيرة حتى ذابوا فى المجتمع الإسلامى الكبير، ونظرًا لبعض المواجهات الحادَّة بينهم وبين نبى الإسلام بعد هجرته ﷺ (مواجهات بنى قينقاع وبنى النضير وخيبر. إلخ) فقد عمد اليهود الذين أسلموا بعد ذلك إلى التعمية على أصولهم اليهودية، وإن ظلّت بعض الدلائل تشير إلى هذه الأصول.

ويهمنا كثيرًا أن نَعرف العملية الفكرية والإيمانية التى تجعل اليهودى يتحوَّل إلى الإسلام؟كما يهمنا كثيرًا أن نعرف لماذا توقّف هذا المد ـ مدُّ تحوّل اليهود إلى الإسلام ـ بعد القرن السابع عشر ؟ ولماذا ظلت البقية الباقية منهم بعد القرن السابع عشر على دينها أو تحولت إلى المسيحية ؟ وماهى العملية الفكرية والإيمانية الكامنة وراء تحول اليهود إلى المسيحية بعد القرن السابع عشر؟ وما طبيعة المسيحية التى اعتنقوها أو أوجدوها ؟

الحقيقة أنَّ المصادر التراثية العربية (ابن هشام وغيره) لاتُسعفنا بالإجابة عن طبيعة هذه العملية الفكرية والإيمانية لتحول اليهود على عهد النبى ﷺ ، كما لاتُسعفُنا المرجع التراثية أيضًا عن أسباب تحوّلهم بعد عصر الرسول ﷺ ، مما يجعل الباحث مضطرًا للرجوع لمراجع كتبها اليهود أنفسهم. وبين يدىَّ عند كتابة هذا المبحث ثلاثة مصادر : أولها رحلة بنيامين التطيلى اليهودى (القرن السادس للهجرة) والتى جاب فيها العالم الإسلامى كله، وقابل كل الجاليات اليهودية فيه وأحصاهم عددًا. لنقارن بين إحصاءاته وما جرى بعد ذلك من قلَّة عدد اليهود قلَّة واضحة ملموسة. أما المصدر

الثانى فهو رسالة كتبها شموائيل (السموأل) بن يهوذا بعنوان (بذل المجهود فى إفحام اليهود) والذى يحاول فيه إقناع غيره من اليهود بالدخول فى الإسلام، أما المصدر الثالث فهو رسالة للحبر إسرائيل بن شموائيل (السموأل) الأورشليمى وعنوانها (الرسالة السُّبعية الحاوية الضوابط الإرشادية بإبطال الديانة اليهودية) وهى تؤكد لمن بقى من اليهود أنّ عدم الدخول فى الإسلام (عناد قبيح) وتبين لنا العملية الفكرية والإيمانية لهذا التحول.

كانت العقلية اليهودية لاتستسيغ فكرة النَّسخ، فكيف تنسخ التوراة (أو تُعَّدل)، ولم يكونوا أيضًا يستسيغون فكرة الناسخ والمنسوخ فى القرآن الكريم. لكن تطوَّرًا حدث هو ما تبينه هذه الصفحات.

وكانت العقلية اليهودية لاتستسيغ إلاّ أن تكون النبوّة فيهم والملك لهم وحدهم فهم المُصْطفَوْنَ ولاسواهم. لكن بظهور المسيح عليه السلام ومن بعده محمد ﷺ صار الواقع صارخًا واضحًا وضوح الشمس دالاّ على زوال ملكهم. أما الذين تعاملوا مع الواقع فأسلموا لله وآمنوا بنبيه، وظلَّ هذا المد إلى القرن السابع عشر الميلادى، وبعدها مالوا للتحول إلى المسيحية التى عدَّلوها بشكل أو بآخر لتتواءم مع فكرة الإله الواحد.

ولا تزال فكرة التميُّز والاستعلاء وحب التفرّد، وكونهم (صنفًا) وكل الآخرين صنفًا آخر، وكونهم المفضلين والأصفياء والمتعاهدين ـ وحدهم ـ مع الله، هى أهم أسباب بقاء من بقى منهم على اليهودية، ويعتقد المسيحيون الأصوليون أنَّهم لا بد أن يتحولوا إلى المسيحية قبل رجوع المسيح عليه السلام مرة أخرى. وتلك مسألة فى حاجة لمبحث مستقل.

لقد جعل الله قلوبهم قاسية، وهم يميلون إلى من يُعاملهم بشدَّة وَيَنْتق فوقهم الجبل. لقد رأو ـ رأى العيان ـ زوال تفوقهم فكانوا يتحولون إلى الإسلام جماعات جماعات، حتى بدأ انهيار آخر إمبراطورية كبرى للمسلمين (الدولة العثمانية) فبدءوا فى التحول ـ الظَّاهرى على الأقل ـ لدين القوى الأوروبية الصَّاعدة ـ أى إلى المسيحية ـ لكن بطريقتهم الخاصَّة.

ومصدرنا الأساسى عن أعداد اليهود فى العالم الإسلامى هو رحلة بنيامين التطيلى اليهودى (٥٦٩هـ/ ١١٧٣م). [أبو ظبى، المجمع الثقافى، ٢٠٠٢].

بدأ بنيامين التطيلى رحلته التى نحن بصددها فى حدود سنة ١١٦٥م، الموافقة لسنة ٥٦١هـ أو قرابة سنة ٤٩٢٦ من بدء الخليقة حسب التقويم العبرى. وهذا يعنى أنه حين بدأ رحلته خارجًا من سَرقسطة (سراكوزه) لم تكن سرقسطة تحت الحكم الإسلامى، فقد كان قد مضى ـ وقت خروجه منها ـ خمسون عامًا على سقوطها فى أيدى القوى المسيحية. وإذا كان بنيامين يهدف فى الأساس إلى زيارة العالم الإسلامى زيارة تعرف ومعرفة ـ كما ذكر المترجم الأستاذ عَزْرا حدّاد فى مقدمته ـ باعتبار العالم الإسلامى ـ وهذا صحيح ـ كان هو الملجأ والملاذ ليهود شبه جزيرة أيبيريا الذين كانوا يشهدون أيامًا سوداء فى كل منطقة ينتهى فيها الحكم الإسلامى، وباعتبار العالم الإسلامى هو الملجأ والملاذ ليهود سائر أوروبا فى العصور الوسطى، الذين كان الأوروبيون يعاملونهم معاملة دونها بكثير معاملة الأنعام، وينظرون إليهم نظرة ملؤها الكراهية والاحتقار.

لقد كان اليهود من بين العناصر التى رحبت بالفتح الإسلامى للأندلس، بل ومدُّوا له يد العون؛ لذا فقد ظلَّ مسيحيو الأندلس يُعادونهم عداء مريرًا، بل إن هناك من الدراسات ما يؤكّد أنّ السلطات المسيحية بعد سقوط غرناطة ـ وطوال قرن ونيف ـ كانت لا تتهاون فى إخراج اليهود بالذات ولم تكن تقبل منهم حتى التحوّل إلى النصرانية، أما على المستوى الشعبى فقد كان شعب إسپانيا غير راض عن طرد المسلمين؛ لأنهم كانوا يمثلون طاقة عاملة لها شأنها، بل كانت الأسر النصرانية تُخبئ المسلمين مما جعل السلطات المسيحية مضطرة لجلب جنود من أوروبا من خارج إسپانيا للمعاونة فى التفتيش على المسلمين وطردهم. نعلم أن هذه الفترة خارج نطاق الفترة الزمنية التى قام فيها بنيامين برحلته، لكن منهجنا فى كتابة التاريخ أو بالأحرى فهمه لا يكتفى بالرجوع للوثائق والمصادر الروائية، وإنما بالإضافة إلى ذلك يستعين بالأحداث التاريخية التى وقعت بعد الفترة التى نؤرِّخ لها، ويستعين باللغة المتداولة الآن، والوقائع الجارية الآن، والمعانى المبثوثة الآن لتفسير وقائع مضت، فحوادث التاريخ سيل مستمر، وتقسيمها إلى قديم ووسيط وحديث من فعل البشر لا من فعْل طبيعة الأحداث. . وكان هذا التقسيم لأسباب عملية لا لأسباب علمية خالصةَ أو لأسباب فلسفية محضة. لكن لا بد على أى حال من وضع بعض المحاذير على هذا المنهج حتى لا تختلط الأمور.

لذا فإننا نجتزئ بعض الصفحات من مبحث يتناول موقف أهل شبه جزيرة أيبيريا من كلٍّ المسلمين واليهود بعد سقوط غرناطة، ولا ننفى أن المشاعر ذاتها كانت موجودة فى أوقات سبقت:

«لا يتناول هذا البحث أفكارًا... عن موقف الإسپان من المسلمين عقب سقوط غرناطة وطوال القرن السادس عشر، وحتى أخرجوا من ديارهم نهائيًا فى مطلع القرن السابع عشر. وتثبت هذه الدراسة من خلال وثائق منشورة أن عامة الناس وأصحاب الأراضى والمصانع خاصة لم يؤيدوا إخراج المسلمين لما فى ذلك من أضرار اقتصادية ستحيق بالبلاد، وهذا ما أثبته التاريخ بعد ذلك. لم يكن إخراج المسلمين عقب سقوط غرناطة ـ إذًا ـ مطلبا شعبيًا وإنما مطلب كنسى عارضه العامة، وعارضه حكام الولايات... فقد كان عداء الإسپان لغير المسيحيين منصبًا فى الأساس على اليهود لأسباب دينية وعرقية واقتصادية. الذين أجبروا على الخروج ولم يُقبل منهم حتى التحول إلى المسيحية هم اليهود وليس المسلمين الذين تُرك لهم فى البداية حرية الاختيار بين الإقامة والرحيل، ثم ما لبث الكنسيون أن فرضوا رأيهم فأصبح الخيار محصورًا بين الرحيل أو قبول التعميد، وفى مطلع القرن السابع عشر أجبروا جميعًا على الرحيل».

ويلاحظ أن مترجم رحلة بنيامين (عزرا حدَّاد) أوضح فى تعليقاته أنَّ العرف جرى أن يحصى الباحثون والمؤرخون اليهود عددهم بالبيت أو بالأسرة لا بعدد الأفراد فلا يحصى فى هذا الحال إلاَّ رب الأسرة فقط، وإذا علمنا أن زيادة الإنجاب هى توجُّه يهودى كما كان فى وقت من الأوقات توجهًا إسلاميًا، مع فارق غير كبير فى العوامل الكامنة خلف هذا التوجه، ففى حالة المسلمين تُروى أحاديث كثيرة عن الرسول ﷺ فى الحث على التناكح لأنه يؤدى إلى التناسل، مما يجعل النبى ﷺ يُباهى بالمسلمين الأمم يوم القيامة، وبصرف النظر عن إساءة التفسير فقد ظل هذا بالإضافة لطبيعة الاقتصاد الزراعى قبل الميكنة عاملاً موجهًا، أما فى حالة اليهود فقد كان إحساسهم بقلة عددهم وأنهم شعب مختار دافعًا لهم للتناكح والتناسل، لكنه لم يؤت النتيجة المرجوّة ربما بسبب التزاوج الداخلى أى داخل الجماعة العرقية الواحدة، لكثرة الخلافات العقائدية بين اليهود، مما يجعل كل جماعة لا تعترف بالزواج الشرعى أو

التلمودى من كثير من الجماعات أو الأعراق اليهودية الأخرى، مما جعل أحد الباحثين اليهود يتوقع انشقاقًا عرقيًا أو قيام مجتمعين منفصلين داخل كيان إسرائيل بسبب نظم الزواج، وثمة ملحوظة أخرى هى أنه ربما كانت هذه الأرقام التى ذكرها بنيامين غير حقيقية أو أنها مكوَّدة أو مشفرة بحيث لا يفهمها إلا اليهود، ذلك أن كتابه هذا لايمكن أن يدخل فى أدب الرحلات بمعناه المتعارف عليه، فالرجلُ كما سبق القَول لايرى فى المناطق التى زارها إلا اليهود، ولم يُسجّل تقريبًا إلا أعدادهم وما ذكره من أشخاصهم لم يترجم لهم، وإنما ذكر أسماءهم ومهنهم ومناصبهم فى سلك الكهنوت اليهودى على الأكثر، وكأن لسان حاله يقول : من أراد مزيدًا من المعلومات فعليه الاتصال بفلان فى بلدة كذا. . إنَّ كتابه هذا بمثابة دليل تعارف بين يهود العالم، إذا حان وقت الهجرة والرَّحيل.

***

حركة بنيامين فى مناطق الوجود الصليبى بالشام

لا نكاد نجد يهودًا فى مناطق الوجود الصليبى فى الشام فى أثناء رحلة بنيامين اللهم إلاَّ الطائفة السَّامرية فى طرابلس، وهؤلاء لم يكن اليهود يعترفون بهم كيهود، وإنما ينظرون إليهم كطائفة تكاد تكون على دين مستقل هو الدين السامرى، فالتوراة غير التوراة، والتلمود لا يقيم له السامريون وزنًا، وبنيامين لاينظر إليهم بود، ومترجم الكتاب فى مُلحقه لا يتعاطف معهم، فليس بمستبعد أن يكون الصليبيون قد وضعوا ذلك فى الاعتبار؛ لذا وجدنا أكبر تجمع يهودى فى البلاد التى كان فيها وجود صليبى هو التجمع السامرى فى نابلس. ويحدثنا عبد اللطيف البغدادى الذى زار مصر فى حكم صلاح الدين الأيوبى، أنّ السامريين يعتقدون أن نابلس وليس القدس هى موضع المعبد المقدس، وربما أيضًا كان لهذا أثره فى عدم اضطهاد الصليبيين لهم فى عصر كانت الأفكار الدينية يمكن توجيهها ببساطة لخدمة أغراض سياسية، ثم إننا علمنا من المصادر (ذكرنا ذلك آنفًا) أن الحملات الصليبية كانت تقتل اليهود فى المدن والقرى الأوروبية التى كانت تمر بها فكيف بقى هذا العدد القليل من اليهود فى ظل الحكم الصليبى؟ ثم كيف تحرك بنيامين بحرية فى هذه المناطق؟ أيمكن أن يكون بنيامين قد اجتاز هذه المنطقة متنكرًا كمسيحى؟ربما أو حتى كمسلم ؟ ربما أيضًا خاصة وأن

الحروب الصليبية كان قد مضى على بدايتها أكثر من ستين عامًا (بدأت ١٠٩٨م) ويشير الباحثون إلى أن العلاقات التجارية بين الصليبيين والمسلمين، بل والعلاقات الاجتماعية لم تنقطع بين فترات الحروب، وتناولها بعض الباحثين (د. عاشور مثلاً) كصفحة متكاملة من (العلاقات) فيها الجوانب الحربية والاقتصادية والاجتماعية. فلم يكن محظوراً فى ظل ظروف معينة أن يتجول المسلم فى مناطق الحكم الصليبى.

وما كان بنيامين ليستطيع أن يكتب كل آرائه، أو يبث آلامه من معاملة الصليبيين فى رحلته هذه لأسباب لا تخفى، لكن تعليقات عزرا حداد أكملت هذا النقص، أما نحن فلجأنا إلى لغة الأرقام نستفتيها ونخلُص منها بالنتائج وهذا واضح فى الصفحات التاليات:

مسلسل	اسم المدينة أو القرية	عدد اليهود
١	أنطاكية	١٠
٢	الليكة (اللاذقية)	٢٠٠
٣	جبلة	–
٤	جبيل	١٥٠
٥	بيروت	٥٠
٦	صيدا	٢٠
٧	صرفندة	–
٨	صور الجديدة	٤٠٠
٩	عكا	٢٠٠
١٠	حيفا	–
١١	كفر ناحوم	--
١٢	قيسارية	٢٠٠
١٣	قاقون (كيلا)	–
١٤	اللّد	١
١٥	سبسطية (السامرة القديمة)	--
١٦	نابلس	١٠٠٠
١٧	جبل جلبوع	--
١٨	وادى أيلون	--
١٩	جبل المورية	--
٢٠	بيت المقدس	٢٠٠
٢١	بيت لحم	١
٢٢	الخليل	--
٢٣	بيت جبرين	٣
٢٤	قلعة الحصن	٣٠٠

obeikandl.com

٢٥	سنت صموئيل (سيلون)	--
٢٦	بيسان	--
٢٧	بيت النبى	٢
٢٨	الرملة	٣٠٠
٢٩	يافا	١
٣٠	إيلين	--
٣١	أشدود	--
٣٢	عسقلان	٢٠٠
٣٣	زيدين (زرين)	١
٣٤	صفورية	--
٣٥	طبرية	١٠٠
٣٦	تبنين	--
٣٧	جوش	٢٠
٣٨	ميرون	--
٣٩	علمه	--
٤٠	قادس	--
٤١	بلنياس	--
	المجموع	٣٣٦٩

من هذا الجدول يتضح ما يلى :

* أن عدد اليهود فى المدن والقرى التى زارها بنيامين فيما يعرف اليوم بلواء الإسكندرونة والسواحل السورية ولبنان وفلسطين بمعناها الجغرافى الواسع كانت قرابة ٣٣٥٩ يهوديّا فى ٤١ مدينة وقرية ، ولأن بنيامين كان يتحرَّى التجمعات اليهودية فيمكننا القول : إنهم فى المناطق الآنف ذكرها جميعًا (فلسطين وسواحل المتوسط) لم يكونوا ليزيدوا عن ذلك كثيراً .

وإذا علمنا أن عدد اليهود فى التجمعات السكنية التى زارها فى الدولة البيزنطية كان ٧٨٥٠ يهوديّا فى ٣١ تجمعًا (قرية أو مدينة)، اتضح بجلاء أن نسبة الوجود اليهودى

obeikandl.com

فى الدولة البيزنطية كان أعلى بكثير من نسبة وجودهم فى فلسطين وسواحل البحر المتوسط الشرقية فى ظل الحكم الصليبى، فلكى تكون النسبة واحدة كان من المفترض أن يكون عدد اليهود فى التجمعات التى زارها بنيامين فى فلسطين وسواحل البحر المتوسط الشرقية هو ٧٨٥٠ يهوديّا على الأقل.

* إن عدد اليهود فى فلسطين التاريخية كان ضئيلاً جدّا فى ظل الحكم الصليبى لا يتعدى الألفين، فى ٣٥ تجمعًا سكنيّا (إذا حذفنا التجمعات السكنية التى مر عليها بنيامين فى مناطق ما يعرف الآن باسم لبنان والساحل السورى ولواء الإسكندرونة التركى).

* وإذا أضفنا لهذا أنَّ هناك ألفًا من أهل نابلس رفض بنيامين أن يعتبرهم يهودًا وهم من طائفة الكوتيين (السامريين) الذين يتبعون أسفار موسى، ولا يؤمنون بغيرها أى يرفضون التلمود وغيره من كتابات الرابيين (الحاخامات) والمفسرين وهم لا يتزوجون من غير بنات نحلتهم ولا يختلطون مع اليهود الآخرين... ويقول بنيامين مؤكدًا: إنهم غرباء عن بنى إسرائيل.. وهم يبتعدون عن كل ما يُدَنّسهم أى يبالغون فى الطهارة.. وإذا قصدوا الصلاة خلعوا ثيابهم واغتسلوا بالماء واستبدلوا بها ثيابًا غيرها.. وهذا جارى عاداتهم يوميّا. نقول: إذا حذفنا الألف سامرى آخذين فى اعتبارنا ما يقوله بنيامين لأصبح عدد اليهود على طول مناطق الساحل الشرقى للبحر المتوسط بما فيها فلسطين لا يزيد عن الألف يهودى فى ظل الحكم الصليبى. هذا عجيب!! أين ذهب اليهود؟ نؤجل هذا السؤال مؤقتًا لحين الحديث عن طائفة السامريين (الكوتيين) الذين رفض بنيامين اعتبارهم يهودًا؟ والذين تلاشوا بعد ذلك حتى إن عزرا حداد مترجم هذا الكتاب قال فى الملحق الذى أعده عنهم ما يفيد أنهم أصبحوا كالبقايا الأثرية ولم يَعد لهم بعد ذلك وجود. فواضح أيضًا أن عزرا حداد ـ مثل بنيامين من قبله ـ لا يحبهم.

إن هؤلاء السامريين فى نابلس لم يتعرضوا لاضطهاد شديد من المسيحيين؛ لأن اليهود لم يكونوا يعترفون بهم كنسل إسرائيل أو كيهود. أيكونون قد أثبتوا أنهم لم يكونوا فى فلسطين يوم (صَلب) المسيح، كما فعل اليهود القرَّاءون الموجودون فى محيط مسيحى لينجوا من الاضطهاد؟ ربما خاصة وأنهم يعتقدون أن المسيح (المنتظر)

سيكون من نسل يُوسف عليه السلام ليس من نسل داود عليه السلام كما يعتقد سائر اليهود، وبالتالى فقد كانوا مستقرين فى مصر ولا علاقة لهم (بصلب) المسيح عليه السلام ؟ ربما، لكن يبقى السؤال الكبير : أين هم ؟ لماذا ـ دون سواهم من اليهود ـ انقرضوا ؟ هنا نستعين بالدليل المنطقى والأنثروبولوچى.

فالسامريون (الكوتيون) كانوا يبالغون فى الطهارة. إنهم ـ قبل الصلاة ـ كانوا يتجردون من لباسهم تمامًا ليلبسوا لباسًا جديدًا خاصّا بالصّلاة، وكانوا يستحمون ولا يكتفون بالوضوء. ونحن نعلم إلى عهد قريب (فى القرن العشرين) أنَّ عدداً كبيراً من المسلمين فى شمال اليمن أو جنوب شبه الجزيرة العربية كانوا يفعلون شيئًا كهذا. فأنت ترى المسلم من هذا النوع وقد غسل نصفه الأسفل جيداً وتوضأ، ثم خلع سرواله (لباسه) وحمله بيده ودخل المسجد وسرواله (لباسه) فى يده، ثم هو يطرح سرواله (لباسه) أمامه فى المسجد ويبدأ فى الصلاة، حتى إذا ما انتهى من صلاته لبس سرواله (لباسه) مرة أخرى فى المسجد، وفى حالة الصلاة الجامعة فى المسجد تجد الصور كالتالى : المسلمون يقفون صفوفًا وأمام كل منهم لباسه (سرواله)، فهم لايصلون فى سراويلهم خشية أن يكون قد أصابها ما جعلها غير طاهرة.. وبعد انتهاء الصلاة والتسليم ترى روَّاد المسجد كلهم وقد انهمك الواحد منهم فى رفع ثوبه وارتداء سرواله، وكلٌّ حريص يستدير للحائط مرة ولأحد الأعمدة مرة أخرى حتى لايرى أحدٌ عَورته... وفى الجيل الماضى كنا نرى بعض الفلاحين فى مصر إذا شرع أحدهم فى الصلاة فى الحقل خلع سرواله.. فإذا رأيته وقف على حين غفلة وخلع سرواله، فلا تظُنّن السُّوء.. إنه سيصلِّى.

هذه الظواهر التى وجدت فى وقت لاحق وظلَّ بعضها إلى عهد قريب جدّا، ألا يمكن أن تكون دليلاً على أنَّ الكوتيين (السامريين) قد تحولوا إلى الإسلام تدريجيّا وانتشروا فى العالم الإسلامى، فى اليمن ومصر وفى غيرهما، وإلا كيف نُفسر هنا التشدد الشديد فى مراعاة الطهارة عند الصلاة فى دين يسمح بالصلاة بمجرد التيمم إذا عزَّ الماء ؟ وبالاستجمار بحجر أو سواه لتطهير قُبُله ودبُره بعد قضاء الحاجة إذا عزَّ الماء ! ولم نسمع أن النبى صلى الله عليه وسلم أو صحابته كانوا يصفون سراويلهم أمامهم فى المسجد. أليست هذه البقايا ممارسات قديمة للمتحولين إلى الإسلام؟ أهذا القول أفضل أم

القول بأن السامريين (الكوتيين) قد انقرضوا لعدم إيمانهم بالتلمود وكتب الحاخامات الأخرى مكتفين بأسفار موسى[1]؟ إن تأمل ملامح الحاضر يُعد دليلاً تاريخيّا لا يقل فى أهميته عن الوثيقة والأثر، وعلى هذا سنضمِّن هذه الدراسة وثيقتين تشيران إلى حركة بين اليهود أنفسهم للتحول إلى الإسلام فى القرنين السادس والسابع الهجريين (١٢، ١٣الميلادى) لأسباب تاريخية سنوضحها.

لقد شهدت مرحلة إخراج المسلمين من الأندلس، وتوغل الإسلام ـ فى المقابل ـ فى آسيا الصغرى وشرق أوروبا، ومرحلة الاحتكاك الحضارى العنيف بين الشرق والغرب ممثلاً فى الحروب الصليبية ـ شهدت تأثيرًا وتأثرًا بين الأديان الثلاثة، بل وأدّت إلى ظهور عقائد مركبة من أكثر من دين، فقد أسَّس درزى الداعية الإسماعيلى الفاطمى ومبعوث الحاكم بأمر الله العقيدة الحاكمية أو الدرزية التى هى مزاج من الإسلام والمسيحية بالإضافة لجانب غَيبى سرّى، فهم فيما تقول دائرة المعارف الإسلامية (مادة دروز) مسلمون مع المسلمين، ومسيحيون مع المسيحيين، وما زال المثل الشعبى الشامى قائمًا شاملاً فى محتواه المضامين التاريخية (مثل الدرزى[2]، مع الحيط القائم). ولم يتعرض الدروز لاضطهاد الصليبيين فى أثناء فترة الحروب الصليبية، وربما كانت ظروف العصر بالإضافة لأسباب أخرى هى التى أدت لظهور هذه التركيبة الدينية. أعنى أنه كان عصر صراع دينى لا يرحم بين أتباع الدين الواحد (المذاهب المختلفة فى أوروبا المسيحية وإلى حد ما فى الشرق الإسلامى).

ويبدو أنّ بنيامين قد بالغ كثيرًا فى ذكر عيوب الدروز فذكر أنهم «فى خصام مستمر مع أهل صيدا، وأنهم لا دين يُعرف لهم. وهم إباحيون. ومن عقائدهم السقيمة أن الروح الزكية إذا فارقت الجسم عند الوفاة حلَّت فى جسم طفل آدمى يُولد فى تلك اللحظة، أمّا الروح الشريرة فتحل فى جسم كلب أو حمار. وعلاقتهم طيبة باليهود» وقد علَّق المترجم اليهودى عزرا حدّاد على ذلك بأن ذكر أنَّ دروز اليوم براء من ذلك ففيهم كلّ مزايا العرب، ونحن نردد بدورنا ما قاله حدَّاد. ويشير بنيامين إلى قلعة جبلة

(١) قرأت فى أحد أعداد جريدة الأهرام (يوليو ٢٠٠٠م)، أن هناك طائفة سامرية صغيرة جدّا لا تزال توجد فى إسرائيل (المؤلف).

(٢) ينطقونها بتشديد الدال وكسرها.

التى تقيم بظاهرها طائفة الحشيشيين (الحشاشين)، ويعلق حداد على ذلك بأنهم الطائفة الإسماعيلية المعروفة، ويصفهم بنيامين بأنهم زنادقة لا يؤمنون بدين محمد ﷺ ويتبعون تعاليم شيخهم (حمدان قرمط)، وهم فى نزاع مستمر مع النصارى من الإفرنج وأمير طرابلس الشام.

* نعود لحديث الأرقام فإنه إذا كان بنيامين قد وجد فى القدس مائتى يهودى فقد قلَّ عددهم بعد رحيله بوقت غير طويل، فعزرا حداد ينقل عن رحَّالة يهودى آخر هو فتاحية زار القدس بعد بنيامين بعشر سنوات فلم يجد فيها إلا يهوديّا واحداً يُدعى إبراهيم الصباغ، كان ـ فيما يقول فتاحية ـ يؤدى للملك ضريبة فادحة ليسمح له بالبقاء، أما فيلكس فابرى Felix Fabri الحاج المسيحى الذى زار القدس بعد أن استعادها صلاح الدين الأيوبى فى سنة ١١٨٧م فوجد فيها ٥٠٠ يهودى وزهاء ألف مسيحى. . لقد عاد اليهود إذن فى ركاب المسلمين فيما يقول عزرا حداد. ليس غريبًا إذن أن ينظر مسيحيو هذه الفترة وحتى القرن السابع عشر للميلاد ـ على الأقل ـ للمسلمين واليهود على أنهم حلفاء، فهل التحالف الأوروبى اليهودى اليوم نوع من تصفية الحسابات التاريخية؟ وهل هو حقّا تحالف سيدوم ؟

بنيامين فى الدولة الإسلامية (العباسية)

اتجه بنيامين بعد ذلك إلى دمشق فدخل بذلك بلاداً يحكمها نور الدين زنكى مع ولاء شكلى للخليفة العباسى فى بغداد، وكان نور الدين هو القوة الأساسية فى الشام فى الفترة من ٥٤١ إلى سنة ٥٦٩هـ/ ١١٣٥-١١٦٣م، وكان الخليفة العباسى الذى زار بنيامين البلاد فى عهده هو المستنجد العباسى ٥٥٥-٥٦٦هـ/ ١١٦٠-١١٧٠م، وربما يكون قد عاصر شطراً من حكم الخليفة التالى له وهو المستضىء ٥٦٦-٥٧٥هـ/ ١١٧٠-١١٨٠م، وإن كان هذا غير مؤكد، فحديثه فى الغالب عن المستنجد، وكان كلا الخليفتين مهيض الجناح لا تأثير لهما فى مجريات الأمور كما سنوضح فيما بعد. ويهمنا هنا تزايد أعداد اليهود بشكل رهيب مقارنة بأعدادهم فى سواحل الشام التى كانت تحت حكم الصليبيين وفى مملكة بيت المقدس. ولغة الأرقام هنا تساعدنا على استخلاص النتائج.

مسلسل	المدينة	عدد اليهود	ملاحظات
١	دمشق	٣٠٠٠	من اليهود التلموديين فقط .
		+	
		٢٠٠	من القرائين ولا يعتبرهم بنيامين يهوداً .
		+	
		٤٠٠	من السامريين ولا يعتبرهم بنيامين يهوداً .
٢	جلعد	٦٠	
٣	صرخد	--	
٤	بعلبك	--	
٥	تدمر	٢٠٠٠	
٦	القريتين	١ ,	
٧	حمص	٢٠	
٨	حماه	--	
٩	شيزر	--	
١٠	لطمين	--	
١١	حلب	١٥٠٠	
١٢	بالس	١٠	
١٣	قلعة جعبر	١٠٠٠	
١٤	الرقة	٧٠٠	
١٥	حران	٢٠	
١٦	رأس العين	٢٠٠	
١٧	نصيبين	١٠٠٠	
١٨	جزيرة ابن عمر	٤٠٠٠	
١٩	الموصل	٧٠٠	
٢٠	الرحبة	١٠٠٠	

obeikandl.com

٢١	قرقيساء	٥٠٠	
٢٢	الأنبار	١٠٠٠	
٢٣	حربى	١٥٠٠٠	
٢٤	عكبرى	١٠٠٠٠	
٢٥	بغداد	٤٠٠٠٠	
٢٦	جاهيجان	٥٠٠٠	
٢٧	خرائب بابل	--	
٢٨	الحلّة	١٠٠٠٠	
٢٩	برس نمرود	--	
٣٠	نفاحة	٢٠٠	
٣١	مرقد حزقيال	؟	
٣٢	الفوسنان	٣٠٠	
٣٣	عين شفائه	--	
٣٤	كفر الكرم	--	
٣٥	الكوفة	٧٠٠٠	
٣٦	سورا	--	
٣٧	شفياثيب		
٣٨	مدن وصحارى شبه الجزيرة العربية	٣٠٠٠٠٠ +	
٣٩	مدن وصحارى شبه الجزيرة العربية	١٠٠٠٠٠ +	
٤٠	مدن وصحارى شبه الجزيرة العربية	٥٠٠٠٠ +	
٤١	مدن وصحارى شبه الجزيرة العربية	٣٠٠٠	

obeikandl.com

٤٢	واسط	١٠٠٠٠	
٤٣	البصرة	١٠٠٠٠	
٤٤	نهر سمره	١٥٠٠	
٤٥	خوزستان (شرق شط العرب)	٧٠٠٠	
٤٦	رودبار	٢٠٠٠٠	
٤٧	نهاوند	--	
٤٨	مواطن الحشاشين	٤٠٠٠	
٤٩	العمادية	٢٥٠٠٠	
٥٠	همذان	٥٠٠٠٠	
٥١	طبرستان	٤٠٠٠	
٥٢	أصبهان	١٥٠٠٠	
٥٣	شيراز	١٠٠٠٠	
٥٤	خيوه	٨٠٠٠	
٥٥	سمرقند	٥٠٠٠٠	
٥٦	نيسابور	٥٠٠٠(؟)	
٥٧	جزيرة قيس	٥٠٠	
٥٨	القطيف	٥٠٠٠	
	الإجمـــــالى	٧٨٢,٨١١	

قرابة ثلاثة أرباع المليون يهودى فى ظل الحكم العباسى والدول الإسلامية التابعة له اسميّا، وإذا أخذنا بملاحظة عزرا حداد التى مؤداها أن المؤرخين والكتاب اليهود جرى العرف لديهم على الإحصاء بعدد أرباب البيوت لا بعدد الأشخاص لكان هذا الرقم أكثر بكثير. يا إلهى لكأنما يهود العالم كله قد تجمعوا فى ديار المسلمين طلبًا للأمان، وإذا وضعنا فى الاعتبار أن هذا الرقم المهول لا يشمل يهود اليمن ومصر؛ لأن بنيامين تعرض لهم فى موضع آخر وهو فى طريق عودته لأوروبا، اتضح لنا كم هو كبير هذا

obeikandi.com

الرقم، ولايمكن تفسير ذلك إلا بالظروف التاريخية وهو ما سنتعرض له ولغيره فى نقاط كالتالى :

ـ كأنما كانت الحروب الصليبية مكنسة كبيرة كنس بها الصليبيون يهود العالم المعروف وقتئذ من الغرب ليلقوهم فى الشرق. ولا تفسير لهذا العدد الكبير من اليهود فى الشام والعراق والدويلات التابعة ـ اسمًا ـ للخلافة العباسية سوى ذلك.

ـ فى الفترة من ٣٣٤هـ إلى ٤٤٧هـ/ ٩٤٦-١٠٥٥م، كان سلاطين بنى بويه الشيعة المغالون هم الحكام الحقيقيين فى كل العراق، بلاد الخليفة العباسى السنى، وكان الخلفاء ألعوبة فى أيديهم، ومع أنهم شيعة رفضوا إقامة خلافة فاطمية فى بغداد خوفًا من أن يستأثر الفاطميون بالحكم دونهم، وأبقوا على الخلافة العباسية. فى ظل هذه الظروف هل يُسمح للخليفة بأن يتحرك بحرية أو يكون له بطانة أو حاشية من المسلمين؟ هذا بالطبع خطر على السلاطين البويهيين، لكن لا مانع من أن تكون له بطانة أو صحبة بيهود أو مسيحيين يُدارسهم، ويقارن معهم الأديان. . فهذا لا خطر

منه على بنى بويه . وقد وجدنا شيئًا كهذا مع اختلاف الظروف والبواعث فى الدولة الفاطمية فى مصر التى وجد خلفاؤها أنهم فى محيط سنى ، فجمعوا حولهم اليهود والمسيحيين واستعانوا بهم كثيراً مما كان له نتائج مهمة جدّا سنتحدث عنها فى حينه .

ـ رغم استيلاء السلاجقة الأتراك على ملك بنى بويه فى العراق ، واستيلائهم قبل ذلك على الولايات الغربية للدولة الغزنوية ، ودخولهم بغداد فى سنة ٤٤٧هـ ، إلا أن أحد الأمراء وهو الحارث أرسلان البساسيرى انتهز ضعف الخليفة العباسى وانشغال طغرل بك أول ملوك السلاجقة بفتح بعض بلاد بغداد فدخل بغداد فى سنة ٤٥٠هـ ، وأقام الخطبة للخليفة المستنصر الفاطمى ، أى أنه أعلن تبعيته للخلافة الفاطمية ، وهكذا أصبح الخليفة العباسى فى قبضة الشيعة ، وسار البساسيرى فى بغداد سيرة الفاطميين فى مصر بالتحبب إلى الناس وتقديم الطعام والأموال ، لكن الخليفة العباسى استنجد بطغرل بك الذى قدم بغداد وقتل البساسيرى ، وبذلك أصبح الخليفة العباسى فى قبضة السلاجقة يتصرفون معه كما يشاءون .

ـ والآن وقد أصبح الخلفاء العباسيون تحت سيطرة السلاجقة فقد سيطر نوابهم العسكريون على الحكم فى العراق ، وأرسلوا حملاتهم إلى الشام لاستعادة ملك بنى العباس (أو بالأحرى مد سلطان السلاجقة) فى المناطق التى سيطر عليها الفاطميون ، فأصبحت الرملة وبيت المقدس ثم بعد ذلك دمشق فى قبضتهم ، وكان الخلفاء فى هذه الأثناء يشرفون على بناء القصور والاستماع إلى الغناء ومجالسة العلماء ، وقد تزاوج السلاطين السلاجقة من بنات الخلفاء وحدث العكس أيضًا فتحسنت العلاقة ، لكن هذا لا يمنع أن السلاجقة كانوا يراقبون شعبية الخليفة العباسى واتصالاته ، خوفًا من ازدياد جماهيريته .

وانقسم ملك السلاجقة إلى أتابكيات (إمارات صغيرة) منها فى الشام عدة أتابكيات . وفى ظل هذه الظروف كانت زيارة بنيامين إلى الشام والعراق .

ـ نحن إذن لا نستنكر ما قاله بنيامين عن الخليفة العباسى المستنجد بالله أبى المظفر يوسف بن المقتفى لأمر الله العباسى ، من أنه كان يعيش عيشة هنية فى قصر فخم واسع الأرجاء ذى حديقة غناء بها موضع لصيد الطير وبرك لصيد الأسماك ، وإن له حاشية تضم بعض اليهود علموه اللغة العبرية قراءة وكتابة .

لقد كانت علاقة الخلفاء بالسلاطين السلاجقة فى هذا الوقت ـ كما سبق أن ذكرنا ـ قد تحسنت كثيراً نسبًا وصهراً وأغرقهم السلاجقة فى الفراغ والملذات، ووقروهم وشرفوهم ورفعوهم شريطة ألا يكون لهم سلطان سياسى.

وحكاية أن المسلمين لا يشاهدون الخليفة إلا مرة فى العام مسألة معقولة، فهى تدبير احترازى اتخذه السلاجقة لإبعاده عن الجماهير، وليست مسألة لها علاقة بالتوقير أو الاحترام كما توهم بنيامين. إنه نوع من العزل السياسى المهذب.

لكن ليس هناك خطورة سياسية كما سبق القول من اندماج الخليفة بغير المسلمين؛ لذا نرى رأس الجالوت أى رئيس الجالية اليهودية عندما يقابل الخليفة تحفه الحاشية والفرسان ويجلس قبالته مباشرة. ورأس الجالوت هذا يدبر أمور ٤٠٠٠٠ يهودى فى بغداد وحدها.

ـ وما ذكره بنيامين عن يهود فى شبه جزيرة العرب يثير حساسية شديدة؛ لذلك أراح الأستاذ المترجم عَزْرا حداد نفسه بالتشكك فى زيارة بنيامين لشبه الجزيرة العربية، والواقع أن الظروف التاريخية للحروب الصليبية تجعلنا لا نستبعد ذلك مع بعض الإيضاحات: أولها: إن هؤلاء اليهود الذين توغلوا فى البادية هربًا من الحروب الصليبية قد يكونون قد تحولوا إلى الإسلام فعلاً أو تظاهروا بذلك، ثم ـ وهذا الطبيعى ـ أسلم أبناؤهم حقّا بمرور الأيام، خاصة أن بنى ركاب الذين ذكرهم بنيامين كانوا ذوى طبيعة بدوية خالصة، وأنهم كانوا يخرجون مع القبائل العربية للغزو والكسب فى الأماكن البعيدة.. لقد ذابوا إذن مع العرب الآخرين، فالظروف الاجتماعية المتشابهة، خاصة إذا كانت بقوة الظروف البدوية غالبًا ما تؤدى إلى توحيد العقائد، وقد أشار الرحالة فاريتما (الحاج يونس) إلى وجود بدو يهود فى جبال قريبة من المدينة المنورة، ووصفهم وصفًا بشعًا، لكن الحقيقة أنَّ ما ذكره ينطبق على بعض القبائل ذات الطابع الانعزالى أى التى لا تحب الاختلاط بالآخرين، وقد تصف بعض القبائل القبائل التى تكرهها أو تغار منها بأنها يهود.. على أية حال فيبدو أن الصحراء قد صهرت هؤلاء اليهود وجعلتهم من المسلمين، خاصة أن الخلاف فى العقائد الأساسية ليس كبيراً فيما عدا حكاية الشعب المختار.

ـ التحالف بين الحشاشين الإسماعيلية واليهود الذى أورده بنيامين عند حديثه عن أرض الملاحدة، أمر مقبول تمامًا، ولأن بنيامين رجل غريب وافد فهو ـ فيما يبدو ـ لم يكن يدرك التبادل الثقافى والعقائدى بين الإسماعيلية واليهود. . وهو ما سنشير إليه فى موضع آخر.

***

خط سير بنيامين إلى جنوب اليمن ثم مصر:

١- خولان	--
٢- عدن	عدد غفير ولم يحدد، والمترجم يعلق بأنه خلط بين عدن وموقع آخر بعيد.
٣- أسوان	--
٤- حلوان	٣٠٠
٥- الزويلة	--
٦- قوص	٣٠٠٠٠ وعلق المترجم بما يفيد أن هذا خطأ من الناسخ.
٧- مصر (العاصمة)	٢٠٠٠
٨- بلبيس	٣٠٠٠
٩- عين شمس	--
١٠-أبو تيج	٢٠٠
١١- بنها	٦٠
١٢- سمناط (سمنود)	٢٠٠
١٣- الدميرة(قرب دمياط)	٧٠٠
١٤- المحلة	٥٠٠
١٥- الإسكندرية	٣٠٠٠
١٦- دمياط	٢٠٠
١٧- سنباط	--
١٨- إيلة	--
١٩- حصن الخطاطين	--

كانت حركة بنيامين فى مصر مريبة نحوًا ما، فقد زار بعض المدن أكثر من مرة، كما أن خط سيره فيها معقد أو مركب كما هو واضح من الخريطة. لقد خرج من أسوان إلى

obeikandl.com

قوص ولما وصل إلى شمال مصر عاد مرة أخرى إلى قوص، ثم إنه لما وصل إلى الإسكندرية عاد فتوجه إلى دمياط، ووصل إلى خليج العقبة فطور سيناء، فدمياط فقوص مرة أخرى، فالإسكندرية فدمياط، وهو قد اتخذ طريقه إلى غرب إفريقيا (إمبراطورية غانة الوسيطة وهى غير دولة غانا حاليّا، فالإمبراطورية الوسيطة كانت إلى الغرب من مملكة مالى الوسيطة ولم تكن دولة ساحلية ـ انظر الخريطة). أهذه حركة سائح ؟ أم تراه كان ينقل رسائل بين يهود البلاد أو يوزع عليهم تعليمات ؟.

ـ وقد لاحظ بعض الباحثين المصريين (سلسلة تاريخ المصريين: أهل الذمة فى العصر الفاطمى) أن عدد اليهود فى مصر فى مطلع الدولة الأيوبية وأواخر الدولة الفاطمية قد تناقص كثيراً، وذلك اعتماداً على الأرقام التى أوردها بنيامين التطيلى فى رحلته هذه والتى صنفناها بطريقة جدولية فيما سبق.

وهى ملاحظة جديرة بالتأمل وفى حاجة إلى تفسير.

ـ أيمكن أن يكون السبب هو أن الرحالة والمؤرخين اليهود قد تعودوا أن يحصوا عدد اليهود وفقًا للأسر أو أرباب البيوت وليس وفقًا لعدد النفوس وهو ما لا يأخذ به الباحثون والرحالة المسلمون عندما يذكرون أرقامًا عن عدد السكان؟ الواقع أن هذا لا يصلح تفسيراً للظاهرة، فالنسبة ستظل ثابتة إذا قورنت بعدد اليهود فى الشام والعراق. فهو عندما ذكر أعداد اليهود فى الشام والعراق وغيرهما اتبع الطريقة نفسها فى الإحصاء.

هل يمكن أن يكون اليهود قد تعرّضوا لاضطهاد شديد فى مصر فى أثناء الدولة الفاطمية فهاجروا منها هجرات جماعية ؟ والحقيقة أن المراجع التى تناولت التاريخ الفاطمى أو الأيوبى لم تشر إلى مثل هذه الهجرة الجماعية. أما فيما يتعلق باضطهاد اليهود والمسيحيين أثناء الحكم الفاطمى، فهو بالتأكيد حديث خرافة. فقد شغل اليهود والقبط أرقى المناصب، وكان منهم زوجات الخلفاء الفاطميين وأمهاتهم. . أما ما يقال عن هدم الكنائس وما إلى ذلك، فلا يستطيع فهمه إلا من فهم طبيعة المذهب الإسماعيلى الشيعى (الفاطمى)، فقد كانت بعض الكنائس يُؤمر بهدمها ثم بعد فترة يُؤمر بإعادة بنائها. . يبدو أنها الكنائس الآيلة للسقوط هى تلك التى يُؤمر بهدمها. وكانت هناك أوامر بتحول يهود أو مسيحيين قَسراً إلى الإسلام، ثم أوامر بالسماح لهم

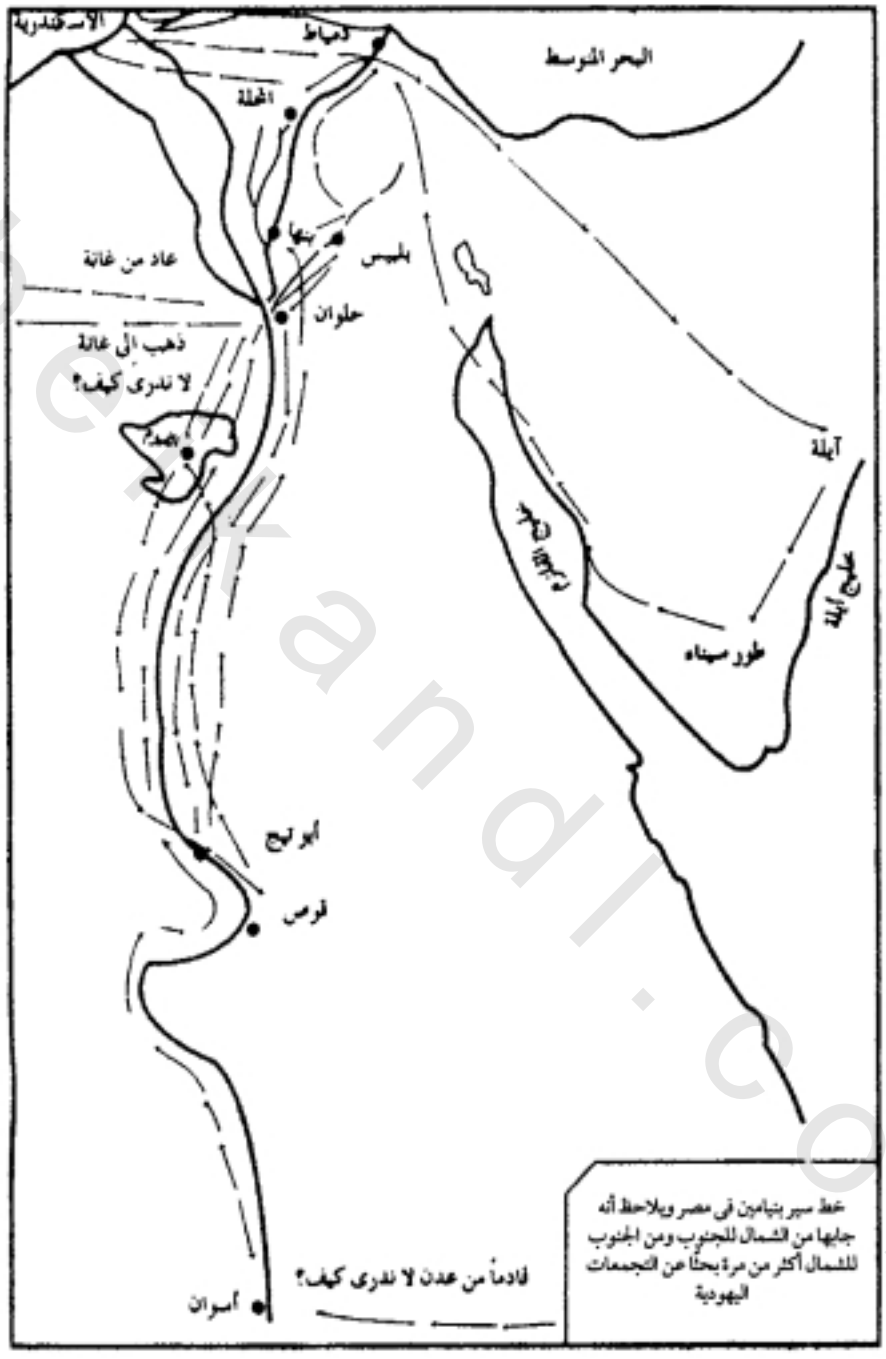

obeikandl.com

بالعودة لدينهم . . وكل هذا لا يمكن فهمه إلا من خلال مبدأ (اكتم ذهبك ومذهبك وذهابك) وإلا من خلال أن الفاطميين الشيعة كانوا يحكمون غالبية من السنة؟ ولم تكن مثل هذه الأوامر الشكلية تحقق غرضها، وإنما كانت إرضاءً ظاهريّا لبعض متعصبى السنة. وكيف يفقد الفاطميون مودة اليهود والنصارى وهم يحكمون شعبًا من السنة تقبل ببساطة شديدة إلغاء كل مظاهر التشيع ممثلة فى إضافة (حى على خير العمل) فى الأذان وغير ذلك بمجرد قيام الدولة الأيوبية؟ ولم ينتحب لإلغاء الدعاء للخليفة الفاطمى فى خطب صلاة الجمعة ؟ . . . إلخ. وكيف يفقد الفاطميون مودة اليهود والنصارى والمناصب الكبيرة فيهم، الطبيب منهم، وأمين الخزانة منهم، وقيم الأموال منهم. . . أنصدق كلمات يرويها مؤرخون لم يتعمقوا فى الأمور والعوامل الكامنة وراءها ونكذب ما نراه رأى العين؟ وما زالت الكنائس التاريخية قائمة أمامنا فى غالبها شاهدًا على ذلك!

لنستبعد ـ إذن ـ مسألة الاضطهاد الدينى هذه كسبب لقلة عدد اليهود فى مصر فى أواخر عهد الدولة الفاطمية وبداية الدولة الأيوبية! والحقيقة أن العصر الفاطمى شهد ـ فيما يبدو ـ نوعًا من المفاوضات أو المساومات لإيجاد دين وسط بين اليهودية والإسلام من ناحية، وبين المسيحية والإسلام من ناحية أخرى، أو بتعبير آخر التوصل عبر مفاوضات ومناقشات ومراعاة للمصالح لإيجاد صيغة دينية وسطية مقبولة للطرفين (المسيحى الإسلامى أو اليهودى الإسلامى) فعلى سبيل المثال بماذا نفسر الظواهر الآتية:

* قائمة المحرمات التى حرمها الحاكم بأمر الله الفاطمى فى الطعام كانت تشمل الأسماك التى لا قشور لها وهو محرم بالفعل فى العهد القديم ـ سفر التثنية، ألا يمكن أن يكون هذا طلبًا أو شرطًا وضعه يعقوب بن كلس الوزير اليهودى ذو الشأن الكبير لكى يتحول إلى الإسلام؟ ولم يجد الحاكم غضاضة فى قبول هذا الطلب من ابن كلس أو من حاشيته من اليهود للوصول إلى قائمة محرمات مشتركة فيما يتعلق بالأطعمة تكون محرمة من الطرفين، وبذلك يتحول اليهود إلى الإسلام دون أن يفقدوا شريعتهم.

* عندما أصدر الحاكم بأمر الله الفاطمى أمره بألا يعمل أحد بالنهار وأن العمل لا يكون إلا ليلاً، لم يسأل أحد من الباحثين الذين كتبوا عنه نفسه : لماذا أمر الحاكم بهذا

الأمر ؟ قال المدافعون عنه : إن ذلك لأن القاهرة كانت حارة نهارًا ، وإن الجو ليلاً كان جميلاً ، وما أحلى العمل على ضوء الفوانيس ! وقال المهاجمون له : إنه مجنون .

والواقع أنه ليس مجنونًا ، كما أن إبطال العمل نهارًا معناه أيضًا اضطراب أمر الصلاة نهارًا ، ولا بد أن الناس سينامون بالنهار ليتمكنوا من السهر ليلاً . لا بد من سبب آخر : إنه شرط بين الحاكم أو المسلمين الإسماعيلية من ناحية ، واليهود من ناحية أخرى ، لمرعاة حرمة يوم السبت ، الذى هو اليوم الذى(استراح) فيه الرّب بعد خلق السماوات والأرض ، وله ـ أى لهذا اليوم ـ حُرمة كبيرة عند اليهود ، لم يتم التهاون فيها جزئيًا إلا فى أوقات لاحقة ، لكن لماذا بقية الأيام أيضًا؟ إذًا ماذا كنتم تظنون؟ أيخص الفاطميون السبت وحده وبذلك تستنتج العامة أنهم تركوا الإسلام وتحولوا إلى اليهودية؟ . وكيف يدوم السلطان ؟ لا بد إذن أنَّ حوارًا على هذا النحو تم بين اليهود من ناحية والسلطان والدعاة من ناحية أخرى :

ابن كلس (واليهود) : لكن للسبت عندنا حرمة كبيرة .

الدعاة الإسماعيلية : نحترم السبت وتحترمون الجمعة .

ابن كلس (واليهود) : نحن لا نعمل يوم السبت .

الدعاة الإسماعيلية : يُحرم الإمام العمل يوم السبت . لكن كيف؟

ابن كلس (واليهود) : الجو فى القاهرة حار ، ليكن ذلك هو السبب فى ألا يعمل الناس نهارًا ، والليل سكون نحن أدرى كيف نقضيه .

الدعاة الإسماعيلية : عظيم! لكن لماذا السبت بالذات؟ أليست الحرارة فى نهار السبت كالحرارة فى الأيام الأخرى ؟! .

ابن كلس (واليهود) : لماذا لا يعمّم مولانا الإمام ذلك بالنسبة لكل الأيام .

الدعاة الإسماعيلية : بارك الله فيكم . . هذا هو الحل ، وبذلك نراعى حرمة السبت ، وتشهدون صلاة الجمعة ، وسيجزل لكم مولانا الإمام العطاء .

ابن كلس (واليهود) : أدام الله عمر الإمام ، سرَّ الله سليل النبى! .

وبمفاوضات على هذا النَّسق تم تسوية المسائل الخلافية الظاهرية ، وهى المهم ، أما المسائل العقائدية ، فالاعتقاد فى الله واحد ، وحكاية (عزير ابن الله) هذه لم تكن هى

عقيدة غالب اليهود، أو كانت عقيدة الجهلة منهم ثم تخلصوا منها. ومحرّمات الزواج تكاد تكون واحدة، والتمسك بالطهارة تكاد تكون واحدة.

ونحن نميل دائمًا لاستخدام الدليل الأنثروبولوچى فى البحوث التاريخية أى تأمل الوضع الحاضر للخلوص منه ـ دون تعنت ـ بأدلة لإثبات وقائع تاريخية. أليس عدد كبير من الفلاحين ـ بل وبعض سكان المدن ـ كانوا إلى عهد قريب ـ وربما إلى الآن ـ يأنفون من أكل لحم السمك الثعبان والقراميط بل والجمبرى (الربيان)؟ إنهم مسلمون الآن، لكنَّ هذا تراث توارثوه من أجداد يهود أسلموا بناء على اتفاقات فى عهد الدولة الفاطمية، أما حُرمة السبت فقد تلاشت بالتدريج بحكم ضرورات الحياة حتى عند عدد كبير من اليهود المعاصرين.

ثم أليس (الفطير المشلتت) أو(الفطير) عمومًا ما زال مرتبطًا فى بعض بيوت الريف التقليدية بالأعياد والمناسبات السعيدة ؟! أليس هذا تقليدًا يهوديّا بالنسبة لبعض الأعياد حيث يُستعاض عن الخبز (ذى الخميرة) بالفطير(الذى لم يختمر عجينه)؟! إنها بقايا اتفاقات الصيغة الوسطية بين الدِّينين اليهودى والإسلامى.

لقد كان الفاطميون حريصين على إيجاد مسلمين جدد يعتمدون عليهم بدلاً من الأغلبية السنية المعادية لهم، وبالفعل نجحت سياستهم نجاحًا مذهلاً حتى إننا لا نستطيع أن نقول : إن الإسلام لم يصبح دين الأغلبية العظمى من سكان مصر إلا فى عهدهم.

وعلى النحو نفسه جرى الأمر بالنسبة للمسيحيين لكن هذا ليس موضوعنا الآن.

كانت هناك إذن حركة تحول جماهيرية بين اليهود المصريين إلى الإسلام وفقًا لهذه الصيغة الوسطية، وهذا هو التفسير الوحيد للملاحظة التى أوردها بعض الباحثين المصريين المعاصرين من أن الأرقام التى أوردها بنيامين عن عدد اليهود فى مصر أقل بكثير مما أورده المؤرخون الذين تحدثوا عن اليهود فى بداية الدولة الفاطمية.

أما لماذا لم تكن حركة التحول اليهودية هذه إلى الإسلام مشهورة معروفة؟ فالسبب بسيط وهو أنه كان مما يُقلِّل كثيرًا من قيمة الشخص ـ على المستوى الشعبى ـ أن يُعرف أن (أصله يهودى) بما تنطوى عليه هذه العبارة من مفاهيم كامنة فى الفكر الشعبى وإن كان هذا بطبيعة الحال أمرًا لا مبرر له.

ولأن بعض المشتغلين بالتاريخ قد لا يفهمون كثيراً مسألة الدليل الأنثروبولوچى هذه، فإننا نسوق لهم وثيقتين، يتضح منهما بشكل جلى محاولة المواءمة بين الدينين للخلوص بصيغة وسطية لا تمنع التحول إلى الإسلام. الوثيقة الأولى لشموائيل بن يهوذا، والصيغة العربية للاسم شموائيل هو سموأل، ويتضح لنا من السياق أنه كان من الدعاة الإسماعيلية فهو يُحدِّثنا عن «الإمام» وظلّ الله فى الأرض... إلخ.

وكتابه هو (بذل المجهود فى إفحام اليهود) واسمه كاملاً هو السموأل بن يهوذا يحيى بن عباس المغربى الأندلسى الطبيب والفيلسوف. قدم أبوه إلى الشرق الإسلامى وتضلع السموأل فى الرياضيات والطب والأديان. وطاف مع أبيه بلاد المشرق واستقر فى بغداد فترة ثم رحل إلى أذربيجان حيث أقام فى مراغة، وفيها أسلم، وكان قبل إسلامه قد بلغ درجة عالية فى الكهنوت اليهودى. وله كتاب آخر غير الكتاب الذى نحن بصدده وهو(الديانة اليهودية).

وكان السَّموأل من بيت دين، فقد كان أبوه فيما يقول هو الرَّاب يهوذا بن أيوب من مدينة فاس التى بأقصى المغرب والرَّاب لقب ليس باسم، وتفسيره الحَبر، وكان عالماً بالتَّوراة وشاعراً ينظم الشعر بالعبرية، وكان اسمه المدعُو به بين أبناء العربية هو أبو البقاء بن يحيى بن عباس ذلك أنَّ كثيراً من اليهود بالمغرب والأندلس كان لهم اسمان، واحد عبرى وآخر عربى، وإن كان الاسم العربى غالبًا ما يكون قريبًا من الاسم العبرى لأنه مشتق منه. وتزوَّج والد السموأل من أمّ السموأل ببغداد وأصلها من البصرة وكانت بارعة فى علوم التوراة وبارعة بالكتابة بالخط العبرى وهى بنت إسحق بن إبراهيم البصرى اللاوى أعنى سَبط لاوى.

يقول السموأل «وكان إسحق هذا ذا علوم يدرسُها ببغداد، وكانت أمه نفيسة بنت أبى نصر الداودى المصرى، وهذا الداودى من رؤسائهم المشهورين وذريته إلى الآن بمصر، وكان اسم أمى على اسم أم شموائيل (السموأل) النبى عليه السلام.

وللسموأل كتب أخرى منها : الطب، والجبر والمقابلة وكان خبيراً بالجواهر والأحجار الكريمة. وتوفى بمراغة من أعمال أذربيچان سنة ٥٧٠هـ.

وفيما يلى نص طويل من هذا الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم

لا إله إلا الله عدة للقاء الله

أما بعد، الحمد لله على ما ألهم به من الهداية، وعصم عنه من الغواية. والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين، وعلى آله الطاهرين.

فإن سبيل من فضل من العباد بالفطانة والرشاد، أن يجد فى البحث عن أحوال المعاد، والتأمل لما أخذه عن الآباء والأجداد، بين الامتحان والانتقاد، فإن رآه فضيلة سما لإدراكها، وإن ألفاه رذيلة نجا من أشراكها، لتضحى حقائبه بطانًا من الزاد، فإن هاتف الموت لبالمرصاد، ولن تحمد العقبى لمضيع فى تحصين شرعه، موزع مواقيته على ما ينقاد إليه بطبعه. ولن يظفر بضالة الحق إلا ناشدوها، ولن يهدج الأباطيل على أنفسهم إلا معتدوها.

والغرض الأقصى من إنشاء هذه الكلمة : الرد على أهل اللجاج والعناد، وأن يظهر ما يعور كلمتهم من الفساد، على أن الأئمة ـ ضوعف ثوابهم ـ قد انتدبوا لذلك وسلكوا فى مناظرتهم اليهود أنواع المسالك، إلا أن أكثر ما نوظروا به لا يكادون يفهمونه أو لا يلتزمونه. وقد جعل الله إلى إفحامهم طريقًا مما يتداولونه فى أيديهم : من نص تنزيلهم، وإعمالهم كتاب الله عند تبديلهم، ليكون حجة عليهم موجودة فى أيديهم. وهذا أول ما أبتدئ به من إلزامهم.

النسخ من نص كتابهم وما تقتضيه أصولهم

أقول لهم : هل كان قبل التوراة شرع أم لا؟ فإن جحدوا كذَّبوا بما نطق به الجزء الثانى من السفر الأول من التوراة. إذ شرع الله على نوح ـ عليه السلام ـ القصاص فى القتل، ذلك قوله تعالى : «**سافك دم الإنسان فليحكم بسفك دمه؛ لأن الله تعالى خلق آدم بصورة شريفة**».

وما يشهد به الجزء الثالث من السفر الأول من التوراة. إذ شرع على إبراهيم ختان المولود فى اليوم الثامن من ميلاده. وهذا وأمثاله شرائع؛ لأن الشرع لا يخرج عن كونه

أمرًا ونهيًا من الله لعباده، سواء نزل على لسان رسول، أو كتب فى أسفار، أو ألواح أو غير ذلك. فإذا أقروا بأنه قد كان شرع. قلنا لهم: ما تقولون فى التوراة؟ هل أتت بزيادة على تلك الشرائع أم لا؟ فإن قالوا: لا. فقد صارت عبثًا. إذ لا زيادة فيها على ما تقدم، ولم تغن شيئًا، فلا يجوز أن تكون صادرة عن الله. فيلزمكم أن التوراة ليست من عند الله تعالى. وذلك كفر على مذهبكم.

وإن كانت التوراة أتت بزيادة، فهل فى تلك الزيادة تحرم ما كان مباحًا أم لا؟ فإن أنكروا ذلك بطل قولهم من وجهين:

أحدهما: أن التوراة حرمت الأعمال الصناعية فى يوم السبت بعد أن كان مباحًا، وهذا بعينه هو النسخ.

والثانى: أنه لا معنى لزيادة فى الشرع إلا تحريم ما تقدمت إباحته، أو إباحة ما تقدم تحريمه.

فإن قالوا: إن الحكيم لايحظر، أى لا يحرم شيئًا ثم يبيحه؛ لأن ذلك إن جاز مثله كان كمن أمر بشىء وضده.

فالجواب: أن من أمر بشىء وضده فى زمانين مختلفين غير متناقض فى أوامره، وإنما يكون كذلك لو كان الأمران فى وقت واحد.

فإن قالوا: إن التوراة حظرت أمورًا كانت مباحة من قبل، ولم تأت بإباحة محظور، والنسخ المكروه هو إباحة المحظور؛ لأن من أبيح له شىء فامتنع عنه وحظره على نفسه فليس بمخالف، وإنما المخالف من منع من شىء فأتاه باستباحته المحظور.

فالجواب: أن من أحل ما حظره الشرع فى طبقة المحرم لما أحله الشرع. إذ كل منهما قد خالف المشروع. ولم يقرأ الكلمة على معاهدها. فإذا جاز أن يأتى شرع التوراة بتحريم ما كان إبراهيم عليه السلام ومن تقدمه عن استباحته، فجائز أن تأتى شريعة أخرى بتحليل ما كان فى التوراة محظوراً.

وأيضًا: فلا تخلو المحظورات من أن يكون تحريمها مفترضًا فى كل الأزمنة؛ لأن الله سبحانه يكره ذلك المحظور لعينه. وإما أن لا يكرهه الله لعينه، بل نهى عنه فى بعض الأزمنة، فإن كان الله نهى عن عمل الصناعات فى يوم السبت لعين السبت،

فينبغى أن يكون هذا التحريم على إبراهيم ونوح وآدم أيضًا؛ لأن عين السبت كانت أيضًا موجودة فى زمانهم وهى على التحريم. وإذا كان ذلك غير محرم على إبراهيم ومن تقدمه فليس النهى عنه لعينه، أعنى فى جميع أوقات وجود عينه، وإذا لزمكم أن تحريم الصناعة فى يوم السبت ليس تحريمًا فى جميع أوقات السبت، فليس يمتنع أن ينسخ هذا التحريم فى زمن آخر، وإذا ظهر قائم بمعجزات الرسالة وأعلام النبوة فى زمن آخر بعد فترة طويلة فجائز أن يأتى بنسخ كثير من أحكام الشريعة، سواء حظر إباحاتها أو أباح محظوراتها. وكيف يجوز أن تحاج بالبينة باعتراض فيما ورد به من أمر ونهى، سواء وافق العقول البشرية أو باينها، ولا سيما أن الخصوم قد طالما تعبدوا بفرائض مباينة للعقول، كطهارة أنجاسهم برمادة البقرة التى كان الإمام الهارونى يحرقها قبيل أوان الحج، ونجاسة ظاهرهم بذلك الرماد بعينه. على أن الذى يروم تنزيله منزلة هذا أقرب كثيراً إلى العقل فإن الأفعال والأوامر الإلهية منزهة عن الوقوف عند مقتضى العقول البشرية.

وإذا كانت التعبدات الشرعية غير عائدة بنفع لله عز وجل، ولا دافعة عنه ضرراً لتنزيهه سبحانه وتعالى عن الانتفاع والتأذى بشىء، فما الذى يحيل أو يمنع كونه تعالى يأمر أمة بشريعة، ثم ينهى أمة أخرى عنها، أو يحرم محظوراً على قوم ويحله لأولادهم ثم يحظره ثانيًا على من يجىء بعدهم؟ وكيف يجوز للمتعبد أنً يعارض الرسول فى تحليله ما كان حراماً على قوم، ويستدل بذلك على كذبه بعد أن جاء بالبينة، وأوعب العقلاء تصديقه وتحكيمه، أليس هذا تحكمًا وضلالاً، وعدولاً عن الحق ؟.

إفحام اليهود والنصارى بالحجج العقلية وإلزامهم الإسلام

لا يسع عاقلاً أن يكذب نبيّا ذا دعوة شائعة، وكلمة قائمة، ويصدق غيره؛ لأنه لم ير أحدهما، ولا شاهد معجزاته. فإذا خص أحدهما بالتصديق، والآخر بالتكذيب، فقد تعين عليه الملام والإزراء عقلاً. ولنضرب لذلك مثلاً:

إذا سألنا يهوديّا عن موسى عليه السلام، وهل رآه وعاين معجزاته فهو بالضرورة يقر بأنه لم يشاهد شيئًا من ذلك عيانًا.

فنقول له : بماذا عرفت نبوة موسى وصدقه ؟ فإن قال : إن التواتر قد حقق ذلك، وشهادات الأمم بصحته دليل ثابت فى العقل، كما قد ثبت عقلاً وجود بلاد وأنهار لم نشاهدها وإنما تحققنا وجودها بتواتر الأنباء والأخبار.

قلنا : إن هذا التواتر موجود لمحمد ﷺ وعيسى عليه السلام، كما هو موجود لموسى عليه السلام، فيلزمك التصديق بهما.

وإن قال اليهودى : إن شهادة أبى عندى بنبوة موسى هى شبه تصديق بنبوته.

قلنا له : ولمَ كان أبوك عندك صادقًا فى ذلك معصومًا عن الكذب ؟ وأنت ترى الكفار أيضًا يعلمهم آباؤهم ما هو كفر عندك إما تعصبًا من أحدهم لدينه، وكراهية لمباينة طائفته، ومفارقة قومه وعشيرته، وإما لأن أباه وأشياخه نقلوه إليه فتلقنه منهم، معتقدًا فيه الهداية والنجاة. فإذا كنت يا هذا ترى جميع المذاهب التى تكفر بها قد أخذها أبناؤها عن آبائهم كأخذ مذهبك عن أبيك، وكنت عالمًا أن ما هم عليه ضلال وجهل. فيلزمك أن تبحث عما أخذته عن أبيك من أن تكون هذه حالتك.

فإن قال : إن الذى أخذته عن أبى أصح مما أخذه الناس عن آبائهم. لزمه أن يقيم البرهان على نبوة موسى من غير تقليد لأبيه؛ لأنه قد ادعى صحة ذلك بغير تقليد. وإن زعم أن العلة فى صحة ما نقله عن أبيه أنه رجح أباه عن آباء الناس أصدق والمعرفة كما يدعى اليهود فى حق آبائهم، لزمه أن يأتى بالدليل على أن أباه أعقل من سائر آباء الناس، وأفضل. فإن هو ادعى ذلك فقد كذب فيه؛ لأن من ادعى مثل هذا يجب أن يستدل على فضائله بآثاره، وقول اليهود باطل، فإنهم ليس لهم من الآثار فى العالم ما ليس لغيرهم مثله، بل هم على الحقيقة، لا ذكر لهم بين الأمم الذين استخرجوا العلوم الدقيقة ودونوها لمن يأتى بعدهم، وجميع ما نسب إليهم من العلوم وما استفادوه من علوم غيرهم لا يضاهى بعض الفنون الحكمية التى استخرجها حكماء اليونان، والعلوم التى استنبطها النبط، وأما تصانيف المسلمين فمستحيل لكثرتها أن يقف أحد من الناس على جميع ما صنفوه فى أحد الفنون العلمية لسعته وكثرته. وإذا كان هذا موقعهم من الأمم فقد بطل قولهم إن آباءهم أعقل الناس وأفضلهم وأحكمهم. ولهم أسوة بسائر آباء الناس المماثلين لهم من ولد سام بن نوح عليهما السلام.

فإذا أقروا بتأسِّى آبائهم بآباء غيرهم، وقد علموا أن آباء غيرهم قد لقنوهم الكفر، لزمهم أن شهادة الآباء لا يجوز أن تكون حجة فى صحة الدين. فلا يبقى لهم حجة فى نبوة موسى إلا شهادة التواتر، وهذا التواتر موجود لعيسى ومحمد، كوجوده لموسى.

وإذا كانوا قد آمنوا بموسى لشهادة التواتر بنبوته، فقد لزمهم التصديق بنبوة المسيح والمصطفى عليهما الصلاة والسلام.

وجه آخر من إثبات النسخ وأصوله

نقول لهم: فهل أنتم اليوم على ملة موسى عليه السلام؟.

فإن قالوا: نعم. قلنا لهم: أليس فى التوراة «أن من مس عظمًا، أو وطئ قبرًا، أو حضر ميتًا عند موته، فإنه يصير من النجاسة فى حال لا طهارة له منها، إلا برمادة البقرة التى كان الإمام الهارونى يحرقها» فلا يمكنهم مخالفة ذلك؛ لأنه نص ما يتداولونه.

فنقول لهم: فكيف جعلتم أن من لمس العظم والقبر والميت فهو طاهر يصلح للصلاة وحمل المصحف، والذى فى كتابكم خلافه؟.

فإن قالوا: لأنا عدمنا أسباب الطهارة، وهى رمادة البقرة، والإمام المطهر المستغفر.

قلنا: فهل ترون هذا الأمر مع عجزكم عنه مما تستغنون عنه فى الطهارة أم لا؟.

فإن قالوا: نعم. قد نستغنى عنه. فقد أقروا بالنسخ لتلك الفريضة لحال اقتضاها هذا الزمان.

وإن قالوا: لا نستغنى فى الطهارة عن ذلك الطهور، فقد أقروا بأنهم الأنجاس أبدًا، ما داموا لا يقدرون على سبب الطهارة.

فنقول لهم: فإذا كنتم أنجاسًا على رأيكم وأصولكم، فما بالكم تعتزلون الحائض بعد انقطاع الحيض وارتفاعه سبعة أيام، اعتزالاً تفرطون فيه إلى حد أن أحدكم لو لمس ثوبه ثوب المرأة الحائض لا ستنجستموه مع ثوبه ؟

فإن قالوا : لأن ذلك من أحكام التوراة .

قلنا : أليس فى التوراة أن ذلك يراد به الطهارة ؟ فإذا كانت الطهارة قد فاتتكم فإن النجاسة التى أنتم فيها على معتقدكم لا ترتفع بالغسل كنجاسة الحيض ، فهى كذلك أشد من نجاسة الحيض ، لما أنكم ترون أن الحائض طاهرة إذا كانت من غير ملتكم ، ولا تستنجسون لامسها ، ولا الثوب الذى تلمسه ، وتخصيص الأمر ، أعنى نجاسة الحائض لطائفتكم مما ليس فى التوراة ، فهذا كله منكم نسخ أو تبديل .

فإن قالوا : إن هذا وإن كان النص غير ناطق به فقد جاء فى الفقه .

قلنا لهم : فما تقولون فى فقهائكم . هل الذى اختلفوا فيه من مسائل الخلاف والمذهب ـ على كثرتها لديكم ـ كان ثمرة اجتهاد واستدلال منقول بعينه؟ فهم يقولون : إن جميع ما فى كتب فقهنا نقله الفقهاء عن الأخبار عن الثقات من السلف ، عن يوشع ابن نون عن موسى الكليم عليهما السلام عن الله تعالى . فيلزمكم فى هذه المسألة الواحدة التى اختلف فيها اثنان من فقهائكم أن يكون كل واحد منهما ينقل مذهبه فيها نقلاً مستنداً إلى الله عز وجل . وفى ذلك من الشناعة اللازمة أن يجعلوا الله قد أمر فى تلك المسألة بشىء وخلافه وهوالنسخ الذى يدفعونه بعينه .

فإن قالوا : إن الخلاف غير مستبعد ؛ لأن الأولين كانوا بعد اختلافهم فى المذهب فى المسألة يرجعون بها إلى أصل واحد هو المقطوع به . قلنا : إن الرجوع بعد الاختلاف إلى الاتفاق على مذهب واحد إما لأن أحدهم رجع عما نقل أو طعن فى نقله فيلزمه السقوط عن العدالة ، ولا يجوز لكم أن تعاودوا الالتفات إلى نقله ، وإما أن يكون الفقهاء اجتمعوا على نسخ أحد المذهبين أو تكون رواية أحدهما ناسخة لرواية الآخر ، وما من الفقهاء إلا قد ألغى مذهبه فى مسائل كثيرة ، وهذا جنون ممن لا يقر بالنسخ[1] ، ولا يرى كلام أصحاب الخلاف اجتهاداً ونظراً ، بل نقلاً محضاً .

(١) ليس كل ما تقدم نسخًا وإنما هو تدرج فى التشريع طبعًا لما تقتضيه حاجة الإنسان وتطوره إلى أن اكتمل التشريع الإلهى حال اكتمال العقل البشرى ، والنضج الإنسانى بظهور محمد رسول الله ﷺ ونزول القرآن الكريم ، الذى اشتمل على كل التشريعات التى سبقته بعد أن هذبها وجعلها صالحة لكل زمان وعصر .

إلزامهم النسخ بوجه آخر

نقول لهم : ما تقولون فى صلواتكم وصومكم، هل هى التى فارقكم عليها موسى عليه السلام؟ .

فإن قالوا : نعم . قلنا : فهل كان موسى وأمته يقولون فى صلاتهم كما تقولون : اللهم اضرب بطوق عظيم لعنقنا، واقبضنا جميعًا من أربعة أقطار الأرض إلى قدسك، سبحانك يا جامع تشتيت قوم بنى إسرائيل .

أم هل كانوا على عهد موسى عليه السلام يقولون كما تقولون فى كل يوم :

رد حكامنا كالأولين، ومسراتنا كالابتداء، وابن أورشليم قرية قدسك فى أيامنا وأعزنا ببنائها . سبحانك يا بانى أورشليم .

أما هذه فصول شاهدة بأنكم لفقتموها بعد زوال الدولة؟

وأما صوم إحراق بيت المقدس وصوم حصاره وصوم كداليا الذى جعلتموه فرضًا، هل كان موسى يصومها وأمر بها هو أو خليفته يوشع بن نون ؟ أو صوم صلب هامان، هل هذه الأمور مفترضة بالتوراة، أو زيدت لأسباب اقتضت زيادتها فى هذه الأعصار؟

فإن قالوا : وكيف يلزمنا النسخ بهذه الآية . قلنا : لأن التوراة بهذه الآية نطقت، وهى : لا تزيدوا على الأمر الذى أنا موصيكم به شيئًا، وإذا زدتم أشياء من الفرائض فقد نسختم تلك الآية .

إثبات النسخ على وجه آخر

نقول لهم : أليس عندكم أنّ الله اختار من بنى إسرائيل الأبكار ليكونوا خواص فى الخدمة للأقداس . فيقولون : بلى . فنقول لهم : أليس عندكم أيضًا أن موسى لما نزل من الجبل ومعه الألواح ووجد القوم عاكفين على العجل، وقف بطرف العسكر ونادى : « من كان لله تعالى فليحضرنى » فانضم إليه بنو لاوى ولم ينضم إليه البكور، على أن مناداته وإن كان لفظها يقتضى العموم لم يكن أشار بها إلا إلى البكور، إذ هم

خاصة الله يومئذ، دون أولاد لاوى. فلما خذله البكور ونصره أولاد لاوى قال الله لموسى (واأقاح اثً هلويم ثاحث كل نحور بنى إسرائيل).

تفسيره: وقد أخذت اللاوين عوضًا عن كل بكر فى بنى إسرائيل، وفى عقيب نزول هذه الآية، أليس أن الله عزل الأبكار عن ولاية الاختصاص وأخذ أولاد لاوى عوضًا عنهم؟ فهم لا يقدرون على إنكار ذلك. وهذا يلزمهم منه القول بالبدء أو النسخ.

إلزامهم نبوة المسيح (عليه السلام)

نقول لهم: أليس فى التوراة التى فى أيديكم: لا يزول الملك من آل يهود أو الراسم من بين ظهرانيهم إلى أن يأتى المسيح، فلا يقدرون على جحده؟.

فنقول لهم: أما علمتم أنكم أصحاب دولة وملك إلى ظهور المسيح ثم انقضى ملككم؟. فإن لم يكن لكم ملك فقد لزمكم من التوراة أن المسيح قد أرسل.

وأيضًا: فإنا نقول لهم: أليس منذ بعث المسيح عيسى عليه السلام استولت ملوك الروم على اليهود وبيت المقدس، وانقضت دولتهم، وتفرق شملهم، فلا يقدرون على جحد ذلك إلا بالبهتان، ويلزمهم على أصلهم الذى فى التوراة: أن عيسى بن مريم هو المسيح الذى ينتظرونه.

إلزامهم نبوته ونبوة المصطفى عليهما الصلاة والسلام

نقول لهم: ما تقولون فى عيسى بن مريم؟

فيقولون: ولد يوسف النجار سفاحًا. كان قد عرف اسم الله الأعظم. فاستخدم كثيرًا من الأشياء[1].

(١) وكيف تمكن من معرفة اسم الله وهو ابن السفاح كما يزعمون؟.

فنقول لهم : أليس عندكم فى أصح نقلكم : أن موسى عليه السلام قد أطلعه الله تعالى على الرسم المركب من اثنين وأربعين حرفًا، وبه شق البحر، وعمل المعجزات؟ فلا يقدرون على إنكار ذلك.

فنقول لهم : فإذا كان موسى قد عمل المعجزات بأسماء الله تعالى. فلم صدقتم نبوته وكذبتم نبوة عيسى ؟

فيقولون : لأن الله تعالى علم موسى الأسماء، وعيسى لم يتعلمها من الوحى، ولكنه تعلمها من حيطان بيت المقدس.

فنقول لهم : فإذا كان الأمر الذى يتوصل به إلى عمل المعجزات قد يصل إليه من لا يختصه الله به، ولا يريد تعليمه إياه فبأى شىء جاز تصديق موسى، فيقولون : لأنه أخذها عن ربه ؟

فنقول : وبأى شىء عرفتم أنه أخذها عن ربه ؟ فيقولون : بما تواتر من أخبار أسلافنا؟.

وأيضًا فإنا نلجئهم إلى نقل أسلافهم، ونقول لهم : بماذا عرفتم نبوة موسى ؟ فإن قالوا : بما عمله من معجزات. قلنا لهم : وهل فيكم من رأى المعجزات؟. أليس هذا لعمرى طريقًا إلى تصديق النبوة؟ لأن هذا كان يلزمكم منه أن تكون معجزات الأنبياء عليهم السلام باقية من بعدهم، ليراها كل جيل بعد جيل، فيؤمنوا به وليس ذلك بواجب؛ لأنه إذا اشتهر النبى فى عصر، وصحت نبوته فى ذلك العصر بالمعجزات التى ظهرت منه لأهل عصره، ووصل خبره لأهل عصر آخر، وجب عليهم تصديق نبوته واتباعه؛ لأن المتواترات والمشهورات مما يجب قبولها فى العقل. وموسى عليه السلام ومحمد وعيسى صلوات الله عليهم فى هذا الأمر متساوون.

ونقول : تواتر الشهادات بنبوة موسى أضعف من تواتر الشهادات بنبوة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام؛ لأن شهادة المسلمين والنصارى بنبوة موسى ليست إلا بسبب أن كتابيهما يشهدان له بذلك، فتصديقهم بنبوة موسى فرع عن تصديقهم بكتابيهما. وأما معجزات القرآن فإنها باقية، وإذا كانت باقية فتلك فضيلة زائدة لا تحتاج إلى كونها سبب الإيمان. فأما من أعطى ذوق الفصاحة فإن إيمانه بإعجاز

القرآن إيمان من شاهد المعجزات، لا من اعتمد على الخبر، إلا أن هذه درجة لم يرشح لها أحد.

فإن قالوا: إن نبينا يشهد له جميع الأمم، فإن التواتر به أقوى، فكيف تقولون إنه أضعف؟ قلنا: كل اجتماع شهادات الأمم صحيح لديكم؟ فإن قالوا: نعم. قلنا. فإن الأمم الذين قبلتم شهادتهم مجتمعون على تكفيركم وتضليلكم. فيلزمكم ذلك؛ لأن شهادتهم عندكم مقبولة.

فإن قالوا: لا نقبل شهادة أحد. لم يبق لهم تواتر إلا من طائفتهم، وهى أقل الطوائف عدداً. فيصير تواترهم وشرعهم لذلك أضعف الشرائع. ويلزمهم مما تقدم أن كل من أظهر معجزات شهد بها التواتر مصدق فى مقالته ويلزمهم من ذلك: التصديق بنبوة المسيح والمصطفى عليهما الصلاة والسلام.

• فصل فيما يحكونه عن عيسى عليه السلام

هم يزعمون أنه كان من العلماء، وأنه كان يطبب المرضى بالأدوية، ويوهمهم أن الانتفاع المُنال حصل لهم بدعائه.. وأنه أبرأ جماعة من المرضى من أسقامهم فى يوم السبت فأنكرت عليه اليهود ذلك. فقال لهم: أخبرونى عن الشاة من الغنم: إن وقعت فى البئر يوم السبت، أما تنزلون إليها وتحلون السبت لتخليصها؟ قالوا: بلى. قال: فلماذا أحللتم السبت لتخليص الغنم، ولا تحلونه لتخليص الإنسان الذى هو أكبر حرمة من الغنم؟ فأفحمهم ولم يؤمنوا.

وأيضًا، فإنهم يحكون عنه: إنه كان مع جماعة من تلاميذه فى جبل، ولم يحضرهم الطعام. فأذن لهم فى تناول الحشيش فى يوم السبت. فقال لهم أرأيتم لو أن أحدكم كان وحيداً مع قوم على غير ملته، وأمروه بقطع النبات فى يوم السبت وإلقائه لدوابهم ألستم تجيزون له قطع النبات؟ قالوا: بلى. قال فإن هؤلاء القوم أمرتهم بقطع النبات ليأكلوه لينقذوا به أنفسهم، لا للطعن فى أمر السبت كل ذلك ملاطفة منه لعقولهم التى لا ينطبع فيها النسخ.

لئن كان كل ما يحكونه من ذلك صحيحًا، فلعله كان فى ابتداء أمر المسيح عليه السلام.

ذكر الآيات والعلامات

فى التوراة آيات وعلامات تدل على نبوة سيدنا محمد ﷺ ، إنهم لا يقدرون على أن يجحدوا هذه الآية من الجزء الثانى من السفر الخامس من التوراة : نبيّا أقيم لهم من وسط إخوتهم مثلك به فليؤمنوا . وإنما أشار بهذا إلى أنهم يؤمنون بمحمد ﷺ .

فإن قالوا : إنه قال : من وسط إخوتهم ، وليس فى عادة كتابنا أنه يعنى بقوله «إخوتهم» إلا بنى إسرائيل .

قلنا : بلى ، قد جاء فى التوراة «إخوتهم» لبنى العيص . وذلك فى الجزء الأول من السفر الخامس وهو قوله : أنتم عابرون فى تخوم إخوتكم بنى العيص المقيمين فى سعير ، إياكم أن تطمعوا فى شىء من أرضهم .

فإذا كان بنو العيص إخوة لبنى إسرائيل ؛ لأن العيص وإسرائيل ولدا إسحاق ، فكذلك بنو إسماعيل إخوة لجميع ولد إبراهيم .

وإن قالوا : إن هذا القول إنما أشير به إلى شموائيل النبى عليه السلام ؛ لأنه قال «من وسط إخوتهم مثلك» وشموائيل كان مثل موسى لأنه من أولاد لاوى ، يعنون من السبط الذى كان منه موسى عليه السلام .

قلنا لهم : فإن كنتم صادقين فأى حاجة بكم إلى أن يوصيكم بشموائيل ، وأنتم تقولون : إن شموائيل لم يأت بزيادة ولا نسخ؟ أشفق من أن لا تقبلوه : لأنه إنما أرسل ليقوى أيديكم على أهل فلسطين ، وليردكم إلى شرع التوراة . وبين صفته؟فأنتم أسبق الناس إلى الإيمان به ، لأنه إنما يخاف تكذيبكم لمن ينسخ مذهبكم ، ويغير أوضاع ديانتكم ، فالوصية بالإيمان به مما لا يستغنى مثلكم عنه . ولذلك لم يكن بموسى حاجة إلى أن يوصيكم بالإيمان بنبوة أرميا وأشعيا وغيرهما من الأنبياء .

وهذا دليل على أن التوراة أمرتهم فى هذا الفصل بالإيمان بالمصطفى ﷺ وأتباعه .

الإشارة إلى اسمه ﷺ فى التوراة

قال الله تعالى فى الجزء الثالث من السفر الأول من التوراة، مخاطبًا إبراهيم الخليل عليه السلام : « وأما فى إسماعيل فقد قبلت دعاءك، قد باركت فيه وأثمره وأكثره جدّا جدّا»فهذه الكلمة « بمادماد» إذا عددنا حساب حروفها بالجمل وجدناه اثنين وتسعين، وذلك عدد حروف «محمد» ﷺ . فإنه أيضًا اثنان وتسعون. وإنما جعل ذلك فى هذا الموضع ملغزًا. لأنه لو صرح به لبدلته اليهود وأسقطته من التوراة. كما عملوا فى غير ذلك.

فإن قالوا : إنما يوجد فى التوراة عدة كلمات مما يكون حساب حروفه متساويًا لعدد حساب حرف اسم زيد، وعمرو، وخالد، فيكونون أنبياء؟

فالجواب : أن الأمر كما يقولون لو كان لهذه الآية أسوة بغيرها من كلمات التوراة، لكنا نقيم البراهين والأدلة على أنه لا أسوة لهذه الكلمة بغيرها فى سائر التوراة. وذلك أنه ليس فى التوراة من الآيات ما حاز به إسماعيل الشرف كهذه الآية. لأنها وعد من الله تعالى لإبراهيم بما يكون من شرف إسماعيل. وليس فى التوراة آية أخرى مشتملة على شرف لقبيلة زيد وعمرو وخالد وبكر، كما أنه ليس فى هذه الآية كلمة تساوى «بمادماد» التى معناها «جدّا جدّا» وذلك أنها كلمة المبالغة من الله سبحانه وتعالى، فلا أسوة لها من كلمات الآية المذكورة، وإذا كانت هذه الآية أعظم الآيات مبالغة فى حق إسماعيل وأولاده. وكانت تلك الكلمة أعظم مبالغة من باقى كلمات تلك الآية، فلا عجب أن تتضمن الإشارة إلى أجل أولاد إسماعيل شرفًا، وأعظمهم قدرًا ﷺ .

وإذ قد بينا أنه ليس لهذه الكلمة أسوة بغيرها من كلمات هذه الآية، ولا لهذه الآية أسوة بغيرها من آيات التوراة فقد بطل اعتراضهم.

ذكر الموضع الذى أشير فيه إلى نبوة الكليم، والمسيح، والمصطفى عليهم الصلاة والسلام

قال الله تعالى «من سيناء تجلى، وأشرق نوره من سيعير، واطلع من جبال فاران، ومعه ربوات المقدسين».

وهم يعلمون أن جبل سيعير هو جبل الشراة الذى فيه «بنو العيص» الذين آمنوا بالمسيح عيسى عليه السلام. بل فى هذا الجبل كان مقام المسيح عليه السلام. وهم يعلمون أن سيناء هو جبل الطور. لكنهم لا يعلمون أن جبل فاران هو جبل مكة. وفى الإشارة إلى هذه الأماكن الثلاثة التى كانت مقام نبوة هؤلاء الأنبياء للعقلاء أن يبحثوا عن تأويله المؤدى إلى الأمر باتباع مقالتهم.

فأما الدليل الواضح من التوراة على أن جبل فاران هو جبل مكة : فهو أن إسماعيل لما فارق أباه الخليل عليهما السلام سكن إسماعيل فى برية فاران، ونطقت التوراة بذلك فى قوله : وأقام فى برية فاران وأنكحته أمه امرأة من أرض مصر. فقد ثبت من التوراة أن جبل فاران مسكن لآل إسماعيل. وإذا كانت التوراة قد أشارت فى الآية التى تقدم ذكرها إلى نبوة تنزل على جبل فاران لزم أن تلك النبوة على آل إسماعيل، لأنهم سكان فاران. وقد علم الناس قاطبة أن المشار إليه بالنبوة من ولد إسماعيل هو محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه بعث من مكة التى كان فيها مقام إبراهيم وإسماعيل. فدل ذلك على أن جبال فاران هى جبال مكة، وأن التوراة أشارت فى هذه المواضع إلى نبوة المصطفى صلى الله عليه وسلم وبشرت به، إلا أن اليهود ـ لجهلهم وضلالهم ـ لا يجوزون الجمع بين هاتين العبارتين من الآيتين بل يسلمون بالمقدمتين ويجحدون النتيجة، لفرط جهلهم. وقد شهدت عليهم التوراة بالإفلاس من الفطنة والرأى وذلك قوله تعالى : إنهم لشعب عادم الرأى، وليس فيهم فطانة.

• فصل فى إبطال ما يدعون من محبة الله تعالى إياهم

هم يزعمون أن الله سبحانه تعالى يحبهم دون جميع الناس، ويحب طائفتهم وسلالتهم، وأن الأنبياء والصالحين لا يختارهم الله تعالى إلا منهم، ونحن نناظرهم على ذلك :

فنقول لهم : ما قولكم فى أيوب النبى عليه السلام ؟ أتقرون بنبوته؟

فيقولون : نعم.

فنقول لهم: ما تقولون فى جمهور بنى إسرائيل؟ أعنى التسعة أسباط والنصف الذين أغواهم برعام بن نباط الذى خرج على ولد سليمان بن داود، ووضع لهم الكبشين من الذهب وعكف على عبادتهما جماعة من بنى إسرائيل وأهل جميع ولاية دار ملكهم الملقب يومئذ شورمون، إلى أن جرت الحرب بينهم وبين السبطيين والنصف الذين كانوا مؤمنين مع ولد سليمان ببيت المقدس، وقتل معهم فى معركة واحدة خمسمائة ألف إنسان. فما تقولون فى أولئك القتلى بأسرهم؟ وفى التسعة أسباط ونصف، هل كان الله يحبهم لأنهم إسرائيليون ؟

فيقولون : لا، لأنهم كفار.

فنقول لهم : أليس عندكم فى التوراة، أنه لا فرق بين الدخيل فى دينكم وبين الصريح النسب منكم ؟ فيقولون : بلى، لأن التوراة ناطقة بهذا: إن الأجنبى والصريح النسب سواء بينكم عند الله.

ويوجد أيضًا: شريعة واحدة وحكم واحد يكون لكم وللغريب الساكن فيما بينكم.

وبهذا اضطررنا إلى الإقرار بأن الله لا يحب الضالين منهم ويحب المؤمنين من غير طائفتهم، ويتخذ أولياءه وأنبياءه من غير سلالتهم، فقد نفوا ما ادعوه من اختصاص محبة الله سبحانه وتعالى لطائفتهم من بين المخلوقين.

• فصل فى ذكر طرف من كفرهم وتبديلهم

إن سبيل ذوى التحصيل أن يجتنبوا الرذائل، وينفروا مما قبح فى العقول السليمة، ورجح زيفه عند الأفهام المستقيمة. ولهذه الطائفة من الفنون الضلالية والاختلال ما تنبو عن مثله العقول، ويخالفه المشروع والمعقول.

فمن ذلك: أنهم من ذهاب دولتهم وتفرق شملهم وعملهم بالغضب الممدود عليهم، يقولون كل يوم فى صلواتهم : إنهم أبناء الله وأحباؤه، وذلك قولهم كل يوم فى الصلاة: الدهر أحبتنا يا إلهنا.

وأيضًا: اردنا يا أبانا إلى شريعتك.

وأيضًا : يا أبانا يا ملكنا يا إلهنا .

وأيضًا : أنت اللهم أبونا منقذنا .

وأيضًا : جميع الذين اقتفوا أثر نبيك واعدًا جماعتك كلهم عبروا البحر واحد منهم لم يبق .

ويمثلون أنفسهم بعناقيد العنب ، وسائر الأمم بالشوك المحيط بأعالى حيطان الكرم . وهذا من قلة عقولهم ونظرهم ، فإن المعتنى بمصالح الكرم إنما يجعل على حيطانه الشوك حفظًا وحياطة للكرم . ولسنا نرى لليهود من بقية الأمم إلا الضرر والذل والصغار ، وذلك مبطل لقولهم . وينتظرون فإنما يأتيهم من نسل داود : إذا حرك شفتيه بالدعاء مات جميع الأمم ولا يبقى إلا اليهود وأن هذا المنتظر بزعمهم هو المسيح الذى وعدوا به . وقد كان الأنبياء عليهم السلام ضربوا لهم أمثالاً أشاروا بها إلى جلالة دين المسيح عليه السلام وخضوع الجبارين لأهل ملته وإتيانه بالنسخ العظيم .

فمن ذلك قول أشعيا فى نبوته : إن الذئب والكبش يرعيان جميعًا ويربضان معًا ، وإن البقرة والدب يرعيان جميعًا ، وإن الأسد يأكل التبن كالبقرة .

فلم يفهموا من تلك الأمثال إلا صورها الحسّيَّة دون معانيها العقلية ، فتأولوها على الإيمان بالمسيح عند مبعثه ، وأقاموا ينتظرون الأسد يأكل التبن ، ونصح لهم حينئذٍ العلائم بمبعث المسيح .

ويعتقدون أيضًا أن هذا المنتظر متى جاءهم يجمعهم بأسرهم إلى القدس ، وتصير لهم الدولة ويخلو العالم من سواهم ، فيحجم الموت عن جنابهم المدة الطويلة . وسبيلهم أن يعولوا على متابعة الأسود فى غاباتهم ، وطرح التبن بين أيديها ، ليعلموا وقت أكلها إياه .

وأيضًا إنهم فى العشر الأول من الشهر الأول من كل سنة ، يقولون فى صلواتهم : يا إلهنا وإله آبائنا املك على جميع أهل الأرض ليقول كل ذى نسمة الله إله إسرائيل قد ملك ومملكته فى الكل متسلطنة .

ويقولون فى هذه الصلوات أيضًا : وسيكون لله الملك وفى ذلك اليوم يكون الله واحدًا . ويعنون بذلك أنه لا يظهر أن الملك لله إلا إذا صارت الدولة إلى اليهود الذين هم أمته وصفوته . فأما ما دامت الدولة لغير اليهود فإن الله خامل الذكر عند الأمم ، وأنه مطعون فى ملكه ، مشكوك فى قدرته . فهذا معنى قولهم : اللهم املك على جميع أهل الأرض ومعنى قولهم : وسيكون الملك لله .

وممّا ينخرط فى هذا المسلك قولهم : لم تقل الأمم أين إلههم؟

وقولهم : انتبه ، لم تنام يا رب ؟استيقظ من رقدتك ؟

وهؤلاء إنما نطقوا بهذه الهذيانات والكفريات من شدة الضجر من الذل والعبودية والصغار ، وانتظار فرج لا يزداد منهم إلا بعدًا ، فأوقعهم ذلك فى الطيش والضجر ، وأخرجهم إلى نوع من الزندقة والهذيان الذى لا تستحسنه إلا عقولهم الركيكة . فتجرءوا على الله بهذه المناجاة القبيحة . كأنهم ينخون الله بذلك لينخى لهم ويحمى لنفسه ، لأنهم إذا ناجوا ربهم بذلك فكأنهم يخبرونه بأنه قد اختار الخمول لنفسه وينخونه للنباهة واشتهار الصيت ، فترى أحدهم إذا تلا هذه الكلمات فى الصلاة يقشعر جلده ، ولا يشك فى أن كلماته تقع عند الله بموقع عظيم ، وأنه يؤثر فى ربه ، ويحركه بذلك ويهزه وينخيه . وهؤلاء على الحقيقة ينبغى أن يرحم جهلهم وضعف عقولهم .

وأيضًا ، فإن عندهم فى توراتهم : إن موسى صعد الجبل مع مشايخ أمته فأبصروا الله جهرة ، وتحت رجليه كرسى منظره كمنظر البلّور ، ذلك قوله :

ويزعمون أن اللوحين مكتوبان بإصبع الله ، ذلك قولهم (بأصباع الوهيم) ويطول الكتاب إن عددنا ما عندهم من كفريات التجسيم ، على أن أحبارهم قد تهذبوا كثيرًا عن معتقد آبائهم بما استفادوه من عندهم ، بما يدفع عنهم إنكار المسلمين عليهم ، وما تقتضيه الألفاظ التى فسروها ونقلوها ، وصاروا متى سئلوا عما عندهم من هذه الفضائح استتروا بالجحد والبهتان ، خوفًا من فظيع ما يلزمهم من الشناعة .

ومن ذلك : أنهم ينسبون الله تعالى إلى الندم على ما يفعل .

فمن ذلك قولهم فى التوراة التى فى أيديهم : وندم الله على خلق البشر فى الأرض وشق عليه .

وقد أفرط المترجم فى تعصبه وتحريفه للألفاظ عن موجب اللغة وفسر(ويناجم أدونای وناب أدونای تميمريه) يعنى : غار الله فى رأيه .

وهذا التأويل أيضًا وإن كان غير موافق اللغة فهو أيضًا كفر ، مناقض لما يدفعونه من البدء والنسخ .

وأما الدليل على تفسيره (وبتعصيب ال لبوه) وشق عليه . فهو ما جاء فى مخاطبة حواء (بتعصيب تيلدى بانيم)

تفسيره : بمشقة تلدين الأولاد .

فقد تبين أن « العصيب» عندهم فى اللسان العبرانى : هو المشقة . وهذه الآية عندهم فى قوم نوح ، زعموا أن الله تعالى لما رأى فساد قوم نوح ، وأن شرهم وكفرهم قد عظم ندم على خلق البشر وشق عليه . ولا يعلم البُله أن من يقول بهذه المقالة يلزمه أن الله كان قبل أن يخلق البشر لم يكن عالمًا مما سيكون من قوم نوح وغير ذلك من النقص ، تعالى الله عما يكفرون .

وعندهم : أن الله تعالى قال لشموائيل النبى عليه السلام (ات أول لميلخ على يسرائيل)

تفسيره : ندمت إذ وليت شاءول على إسرائيل .

وفى موضع آخر من سفر شموائيل (وأدونای يخام كى هموليح اث شاءول على يسرائيل) .

تفسيره : والله ندم علي تمليكه شاءول على إسرائيل .

وأيضًا فإن عندهم فى كتابهم أن نوحًا النبى عليه السلام لما خرج من السفينة بدأ ببناء مذبح لله تعالى وقرب عليه قرابين . ويتلو ذلك : فاستنشق الله تعالى رائحة القتار . فقال الله تعالى ، فى ذاته : لن أعاود لعنة الأرض بسبب الناس لأن خاطر البشرى مطبوع على الردة . ولن أعاود إهلاك جميع الحيوان كما صنعت .

ولسنا نرى أن هذه الكفريات كانت فى التوراة المنزلة على موسى عليه السلام ، ولا نقول أيضًا : إن اليهود قصدوا تغييرها وإفسادها بل الحق أولى أن يتبع ونحن نذكر الآن حقيقة سبب تبديل التوراة . . . إلخ .

وهكذا يستمر شمـوائيل (السموأل) المتحول إلى الإسلام بلهجتـه عالية النّبرة هذه. لكن لدينا وثيقة أخرى ليهودى آخر أسلم وراح يبـرر لغيره من اليهود سبب إسلامه؛ إذ يبدو أنهم أنبـوه على ذلك، وكان هذا اليهودى المتـحول هو الحبر إسرائيل بـن شموائيل (السموأل) الأورشليـمى خفيف الظل حقّـا، ووثيقته كمـا هو واضح من لهجتهـا تشير إلى اتجاه للتحول إلى الإسـلام، كان قبله، كما كان قائمًـا فى زمانه..وإليكم هذه الوثيقة التى تعود إلى القرن الثالث عشر للميلاد:

***

الرسالة السُّبَيعية الحاوية الضوابط الإرشادية بإبطال الديانة اليهودية

للحبر إسرائيل بن شموائيل الأورشليمى

الحمد لله الذى اختص لذاته العلية بقوله السامى «لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون» وجعل الناس أحزابًا وفرقًا، وقد تراهم بجهل وعلم كافة إليه يسألون وأرسل إليهم رسلاً وأنبياء جمة، وأحصى معناهم بمحمد خاتم المرسلين. وأمرنا بالصلاة والسلام عليهم، وعلى آلهم وأصحابهم أجمعين. أما بعد فهذه الرسالة المسماة بالسُّبيعية، الحاوية لسبعين من القضايا التنبيهية قد تتعلق بجواب يفيد المعرفة، واستدلالاً لزوميّا للأحكام التوراتية بالشرائع القرآنية، على سؤال يرد من أحبار اليهود البواقى من الملَّة الإسرائيلية إلى رجل مهتد إلى الديانة المحمدية.

صورة السؤال : ألا يا حبيبى : ما الذى ألجأك إلى أن تترك دين آبائك وأجدادك وتوراتهم وشريعتهم، وتنتقل إلى دين الكوثيم دين الإسلام، الذى كنت تبغضه وتشنؤه، كما نحن الآن جماعة اليهود ونكره الدخول فيه؟

صورة الجواب:

ألا يا بنى إسرائيل يا أقربائى وبنى جنسى : إنى أعلمكم أن الذى ألجأنى إلى أن أترك ما عندكم وأدخل فى دين الإسلام هو مركب من سبع قضايا :

أولها : أنى فحصت الفحص البليغ وتركت الغرض والعناد القبيح فوجدت كلام الأنبياء عليهم السلام وإشارتهم عن هذا النبى العظيم محمد الذى اتبعته هى منطبقة

عليه من كل الجهات، ثم هذه النبوءات التى رأيتها فى كتب الأنبياء وسمعتها. فعلى ظنى أنه ليس عليها مَرد مطلقًا ولا ناقص بوجه الحق، وهى من سيدنا موسى وأشعيا وداود وزكريا وغيرهم، ثم مفردات هذه الشهادة مفندة فى محلات كثيرة من كتب المباحثات والمجادلات فى هذا المعنى مأخوذة من التوراة عينها.

فمن جملة ما ذكرت التوراة فى سفر التكوين المسمى بالعبرانى «باراشيب» بأن لسيدنا إسحاق جد الأنبياء بركة واحدة، وذكرت لسيدنا إسماعيل جملة بركات، وعليكم يا أحبائى بمراجعتها.

وثانيها: أنه قبل مطالعتى لهذه البراهين كان دائمًا يخطر لفكرى ـ كما الآن يخطر لفكركم ـ وكنت أقول لذاتى بأن توراتنا وزَبُورنا ونبوات أنبيائنا لم يوجد فيها أدنى إشارة إلى نبى المسلمين.

ولكن بعد مدة مديدة من الزمان راجعتُ ذاتى وقلتُ فى عقلى: وَيه.. وَيه. كيف نبى مثل هذا الذى تبعته ألوف وكرّات ومليونات وشعوبه وأمته أكثر بكرات من شعوب موسى وتبشيره للناس وإنذاره بترك الكفر والحث على الإيمان بالله ومجاهدته وغيرته الشهيرة، أيُهمل ويُترك وينسى من الذكر عند أنبياء بنى إسرائيل؟ فهذا القول بهذا الشكل الذى يعلمنا فيه أحبارنا والحاخامات هو مضاد لكل عقل سليم، بحيث إن أنبياء بنى إسرائيل أنبؤوا عن أشياء كثيرة وكلية وجزئية، والإشارة عن هذا النبى (محمد) هى من الأشياء الكلية اللازمة، فكيف يتركونها وينسونها وَيه.. وَيه.. أنا لا يقبل عقلى كلام الحاخامات الباطل وتأويلهم.

فالتزمت عندما امتلأ فكرى من هذا الميزان أن أفتش وأفحص بزيادة عما كُنت أفحص من قبل فوجدتُ كما قدمتُ. وقلت إن معانى كثيرة وإشارات غزيرة موجودة فى التوراة تشير إلى هذا النبى العظيم محمد، وهذه هى التى كانت من جملة الأسباب التى أحوجتنى أن أترك الشريعة التوراتية وأتبع الشريعة القرآنية المُهندمة بغاية الهندام، والمنتظم إليها أخص ما يوجد فى الشرائع السابقة.

وثالثها: اعلموا يا أقربائى وبنى جنسى، أنى أخبركم أن الذى حملنى بعد ذلك أن أتبع هذا النبى الجليل محمدًا: من كونى نظرت أن جماعة اليهود على بكرة أبيها فى كل مصر ومكان عائشون بغير شريعة التوراة ولا عاملون بأحكامها اللازمة كونهم لا

يستطيعون العمل بها، لا، بل ممتنع، وقد تصرمت عنهم بالطبع وتلاشت وهى باقية بالورق فقط، ويظهر من ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد استخدمها إلى أزمنة معلومة محدودة غير راضٍ بخلودها. لا، بل إنه راضٍ بانقضائها وتبديلها.

والبرهان على ذلك هو من المشاهدات والمتواترات والتجريبات والحدسيات والأوليات. إذ إننا نرى أن أعمدة وأركان هذه الشريعة الموسوية التى كانت مُسنَدة عليها وفيها قوامها واستيلاؤها قد انهدمت بالكُلية وعدمت، مثل إبادة الملك والرياسة، وعدم وجود الأنبياء وإبطال الكهنوت وخراب الهيكل السليمانى وهدم المذبح واندثار الذبائح ومَحق الأسباط وما يتعلق بهم؛ لأن هذه الأعمدة والأركان قد ربط بها الله سبحانه وتعالى جميع ما يلزم من القضايا الدينية المشروعة فى التوراة حتى الأحكام المدنية، لكى ـ إذا عدمت هذه اللوازم الركنية بطلت ـ (كما هو مشاهد الآن) ـ نستدل من انعدامها على بطلان الديانة جميعها، بحيث تعلق الدين بها، والبرهان على ذلك واضح جدّا وأجلى من ضياء الشمس بضحاها ومشاهد تحت حواسنا بفناها. إذ إن الله سبحانه قد نزع الملك منكم والاستيلاء الذى به كنتم تجرون الأحكام الدينية والمدنية وأبطل وجود الأنبياء من سلسلتكم على الإطلاق التى كانت تسوسكم وتنصحكم وتعلمكم وتنبئكم على ما كان وما يكون، وتصنع المعجزات لكى تثبت لكم أن الذى كانت تخاطبكم به هو وحى من عند الله. وهذه الكثرة من الأنبياء قد كانت موجودة خاصة عند أمتكم بالحصر، وليست عند من سواها، وآباء الكهنة ورؤساء الكهنة والكهنوت الذى كان لا يتم الخلاص لليهود ولا الغفران إلا بهم وعلى أيديهم، وحتى لا يجوز العمل الذى كانوا يعملونه فى الاستغفارات والتخلص من السيئات إلا بواسطتهم، وهدم المذبح والهيكل ـ الذى عمّرهُ سليمان ـ اللذين كانا لا تتم أعمال القرابين إلا بهما. ومحق الله سبحانه وتعالى وهدم معرفة الأسباط ورتبهم ووظائفهم المتعلقة بالخدمات الدينية والأحكام الحرسية والملكية.

ورابعها: وهى الأغرب من كل ما ذكرناه أن «أشداى أصباؤت أهية شراهية» حين وضع شريعة التوراة وفرضها قد جعل على الأمة اليهودية شرائع ووصايا يجمع عددها ستمائة وثلاث عشرة وصية، وهذه الوصاية الحاوية على هذا العدد قد ربطها وحكم حُكمًا صارمًا على من لم يعملها بستمائة وثلاث عشرة لعنة؛ لأنه يُقال فى سفر التثنية

الاشتراع فى الإصحاح السابع والعشرين والثامن والعشرين : «ملعونا يكون من لا يعملها واحدة واحدة» ثم إن هذا الإله سبحانه وتعالى الذى من جملة أسمائه بالعبرانى «الألوهيم» «الأدونای» قد وضع على من يخالف هذه الوصايا ولا يعمل بها واسطة للتخلص من تلك اللعنة المترتبة على المخالف : تطهيرات وتكفيرات وغفرانات وذبائح وقرابين بأعداد من الحيوانات والطيور المعلومات، وحصر هذا الألوهيم الياهو فى هذه المذكورات أن تصنع وتقرب ضمن الهيكل والمذبح ورسم أيضًا بأن من يقدم قربانًا خارج الهيكل يقتل. وأمر بأن تكون القرابين مقدمة له تعالى على (أيادى الأحبار ورؤساء كهنتهم، وكان كل من يتعدى ويخالف وصية من هذه الوصايا وتلزمه لعنة من هذه اللعنات يخلص منها بواسطة الكهنة ورؤساء الكهنة والهيكل والمذبح وباقى المذكورات ـ كما سبق القول ـ وأما الآن يا أقربائى وبنى جنسى، قد رأيت أن عامة اليهود الباقية من بنى إسرائيل عندما يخالفون وصية من هذه الوصايا وتلزمهم لعنة من هذه اللعنات المشروحة من سيدنا موسى فى التوراة ليس لهم وجهة للتخلص منها مطلقًا. وهم حزانى من كونهم لا يمكنهم العمل بكامل الوصايا المشروحة، ومتحققون أنهم تحت مخالفتهم، وثقيل عليهم حمل اللعنات الموضوعة عليهم، ويمتنع أيضًا فرارهم بالتطهيرات والتخلص من قصاصها ما دموا تحت نيرها؛ لأن الباب مسدود بواسطة ما أنا عازم على شرحه... ويه.. ويه! يا أسفاه.. يا حسرتاه؛ لأن الهيكل الذى عمّرهُ سليمان الذى هو مثال القبَّة الموسوية مع المذبح اللذين لا تكون هذه القرابين إلا بهما قد خربا وانهدما، والذبائح والقرابين مع الكهنة ورؤساء الكهنة الذين كانوا يعملونها فى الهيكل والمذبح للفداء والتطهير مع باقى ما ذكرناه من النبوة والملك والأسباط ومتعلقاتهم قد اضمحلوا وتلاشوا وما بقى لهم أثر بالكلية، فمن انعدام ما ذكرناه إفرادًا وإجماعًا، وبطلانه ما عاد يمكن للباقى من الشعب الإسرائيلى التخفف من الخطايا ومن المرتب عليهم من القصاصات. لا، بل وممتنع عليكم يا أحبائى التقرب إلى الله، بحيث التزمتم تبعة لعنات شريعتكم التوراتية مع عدم مكنتكم أيضًا من التطهيرات المربوطة عليها، وهذا القول ليس هو قولى ولا يجوز عندى أن ألعن، بل هى لعنات شريعتكم وتوراتكم....

وخامسها: يا أحبائى، ليس خافيكم أن فى الزمان الماضى قد جاء سيدنا عيسى فاستكبرتم... وقد وعد سيدنا عيسى بمجيء محمد وأشار إليه بإشارات كثيرة. إنه قد

سماه «الفارقليط» وهى كلمة يونانية، وترجمتها للعربى «الداعى»، وبسبب هذه الإشارات أسلم عبدالله بن سلام، وكعب الأحبار وغيرهما كثير.

وسادسها: وإذ رأى الأحبار والحاخامات الكثير من جماعتهم اليهود الموجودين فى تلك الأعصار تابعين لدين هذين الرجلين النبيين العظيمين، وما بقى عندهم إلا القليل من الناس كما هو مشاهد، فقد شرعوا فى عمل تحريفات وتأويلات وتفسيرات مخالفة لمضامين الشهادة الواردة فى التوراة بحقهما. واخترعوا آراء مستحدثة، حتى قد رأوا أن يُبقوا الباقين فى دينهم إلى الآن. ومع ذلك لما كنت أتردد عندكم كنت أرى أن بعضًا منكم مذبذبون ومنقسمة آراؤهم فى الكثير مما ذكرته، وهم من الناس العقلاء، وبعض منهم عارفون الحق ولكنهم مربوطون فى وظائفهم الدينية والأموال والأولاد والعيال، وبعضهم مُغفّلون غير مبالين من دخولهم تحت هذه اللعنات المذكورة التى يلتزم الدخول تحت نيرها جمهورهم بلا محالة بحيث لا يمكنهم عمل الوصايا المربوطة على من لم يعمل هذه اللعنات، مع عدم إمكان عمل الوسائط بالقرابين التى كانت تخلِّص الناس منها.

ثم ومن أقوى هذه الآراء المستحدثة قد اخترعوا لهم رأيًا أبتر ليس له سند من التوراة مطلقًا، لا عن موسى ولا من موسى وهو التقميص.

أعنى أن الإنسان اليهودى عندما يموت وهو غير مكمل الوصايا المشروحة، ومدين إلى الكثير منها ووقع تحت هذه اللعنات فليزمه الرجوع للدنيا ثانى مرّة أو ثالث مرة أو إلى أكثر من ذلك إلى أن يُكمل كل الوصايا ويتخلص من جرثومة هذه اللعنات رويدًا رويدًا، ثم لما فحصت ودققت واتصلت إلى معرفة هذه القواعد الدينية ورأيت أنها حديثة ولا سند لها من التوراة قلت لنفسى: وَيْه! وَيْه! ما الذى يحملك على القعود فى هذه الشريعة. . . .

وسابعها: أنى قلت لنفسى: يا ترى ما الذى يمنعنى من اتباع الحق؟

فقلت: لا مانع.

ثم قلت: وما هو الفرق الحاصل فيما بين ديانتى وبين الديانة المحمدية؟ فأجبت ذاتى وقلت: إن الفروقات اللازمة والضرورية فى هذا المعنى غير المتقدم شرحهنّ سبعة:

الفرق الأول : هو ترك فرائض المأكولات التى حرمها الحاخامات وأثقالها .

الثانى : التخلص من هذه اللعنات ونكباتها .

الثالث : أن أطرح التجديف الذى كنت أتكلمه بحق عيسى وأمه وغيرهما من حواريه والتهجم على تعليماته .

الرابع : أن أقر أن عيسى نبى ورسول من عند الله برسالة معلنة بأفرادها .

الخامس : أن أقلع البغضة المزروعة فى قلبى بحق الأمم من الناس ـ وهى معى عن آبائى وأجدادى ـ وبحق محمد المصطفى بنوع أبلغ الحاوى أكثر المحامد وصفاتها .

السادس : الاعتراف بنبوة محمد ﷺ .

السابع : أعترف بأنه جاء بشريعة عدلية وفضيلة كاملة حاوية معنى جوهريات ما جاء فى الشرائع السابقة . .

هذا هو الذى يزيدُ علىّ ويلزمنى ؛ إذ إن إيمانى بواحدانية الله هو هو ، وختانى بمطهورى هو هو ، وبُعدى عن المرأة فى أوقات معلومة هو هو ، وتطهيراتى وإسقاط غسلى هى هى ، وكثير من الأحكام التوراتية ، كأوجه الزواج المربوط بالقرابات عدا وجهين زائدين هى هى ، واعترافى بموسى ونوح وإبراهيم وباقى الأنبياء هو هو . والشرائع العدلية كالعين بالعين والسن بالسن هى هى . وقد رأيتُ كل ما يلزم ويتعلق اتباعه لذلك هو هو . . ومن بعد وقوفكم على جوابى هذا أرجو أن تعذرونى وإن كان يغيب عنكم شىء اطلبوا إلى الله تعالى أن يرشدكم ويأتيكم بالبيان .

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

***